ثقافات الشعوب





بحيرة الشفاء

حكايات شعبية من آيرلندا

مختارات وتنقيح: وليم باتلر ييتس
ترجمة: تغريد الغضبان

بحيرة الشفاء
حكايات شعبية من آيرلندا

مختارات وتنقيح:
وليم باتلر ييتس

ترجمة:
تغريد الغضبان





بحيرة الشفاء

حكايات شعبية من آيرلندا

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

بحيرة الشفاء: حكايات شعبية من آيرلندا

الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

GR153.5.Y412 2009
Yeats, W.B. (William Butler), 1865-1939.
[Fairy and Folk Tales of the Irish peasantry]

بحيرة الشفاء: حكايات شعبية من آيرلندا/ مختارات وتنقيح وليم باتلر ييتس؛
ترجمة تغريد الغضبان. - ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
184ص؛ 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 978-9948-01-532-1
ترجمة كتاب: Fairy and Folk Tales of the Irish Peasantry
1 - القصص الشعبية الآيرلندية. 2 - الحكايات الآيرلندية. أ- الغضبان، تغريد.
ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبوهواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التتان



info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها ، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها – مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة – تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في

أقاصي الغرب، أو شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه – وإن بلغة أخرى – جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

تقديم

بعد قراءة حكاية «موناشار وماناشار» في هذا الكتاب (في الجزء الثالث من الحكايات الآيرلندية)، تذكرّتُ حكاية «الصبيّ اليتيم» التي كنتُ أُصرّ على جدّتي أن تحكيها لي كلما سنحت الفرصة لذلك. كانت تعتدل في جلستها وترخي يديها المليئتين بالتجاعيد في حضنها وتبسمل، ثم تبدأ بقص الحكاية التي تروي قصة صبي يتيم يصعد إلى الجبل ويحفر حتى يجد حبة شعير وحبة قمح، فيترك الأولى ويضع الثانية في جيبه، ثم يبدأ بهبوط الجبل، ليصادف في طريقه امرأة تطحن، فيطلب منها أن تطحن له حبة القمح. ترفض المرأة في البداية بحجة أن حبة قمح واحدة لا تكفي، وسوف تعلق بحجر الطاحون، فيقنعها بقوله: «أنا صبي تيمي، طلعت عَ راس جبيلي، بحشت، بحشت، لاقيت قمحة وشعيري، قمحتي ما بتروح قمحتي ست القموح».

عندما يرجع الصبي لأخذ الطحين تعلن المرأة أسفها، وتخبره أن حبة قمحه علقت في حجر الطاحون، فيقول لها: «أنا صبي

تيمي، طلعت عَ راس جبيلي، بحشت، بحشت، لاقيت قمحة وشعيري، قمحتي ما بتروح، قمحتي ست القموح، قمحتي بحفنة طحين».

وهكذا تتوالى أحداث الحكاية، فيصادف امرأة تعجن، فيحصل منها على رغيف عجين مقابل حفنة طحينه، ثم أخرى تخبز، ثم راعي أغنام، فأبقار، فجمال، حتى يصل إلى بيت يجري فيه عرس. تتكرر جملة الصبي اليتيم محتجاً ومطالباً بالتعويض عما فقده حتى يرجع إلى بيته على حصان مطهّم وخلفه عروس جميلة، فينفخ على سراجه في غرفته الفقيرة قائلاً:

«يا سراجي نوص نوص بالجمل جبتلك عروس».

هذه الحكاية مازالت محفورة في ذاكرتي، رغم تعاقب السنين واتساع التجارب والمشاهدات والقراءات، ولطالما سألتُ نفسي ما سرُّ حكايات كهذه؟ وكيف يستطيع الغول الذي سمعنا حكايته ونحن في السادسة، وكنا نرتجف خوفاً لمجرد ذكر اسمه، أن يرتع في ذاكرتنا، بقدميه الضخمتين وعينه الواحدة، طوال هذه السنوات من دون أن تتمكن شخصيات حديثة - تلفزيونية أو سينمائية - بكل ما فيها من تسلية وسحر وألوان، وما تثيره حولها من صخب - من طرده، أو احتلال مكانه في

قلوبنا التي كبرت مع الزمن، وازدحمت بكل أنواع القصص والأحداث والشخصيات.

وهناك فوق جبال آيرلندا وهضابها، وبين أوديتها ودروبها الترابية الضيّقة، وعلى ضفاف بحيراتها الكثيرة وشطآنها الصخرية، عاش أناسٌ مثل جدتي فقدوا أسنانهم، وخبا الضوء في عيونهم وشابت شعورهم، ومنهم من صار تحت التراب، لكن حكاياتهم البسيطة المليئة بالخيال والغرابة والفكاهة والشفقة مازالت تعيش حيّة نضرة في قلوب كل من سمعها من أجيال جاءت بعدهم.

يقول وليام بتلر ييتس[1] الذي خاض رحلة بحث طويلة وشاقة - وأتخيل أنها كانت ممتعة أيضاً- لجمع هذه الحكايات من أفواه أناس مشابهين لجدتي:

«من الملاحظ أنه حتى في قرية غربية ليس من السهل عليك الإطلاع على قصص الأشباح وأساطير الجن من دون الاختلاط بالناس في بيئتهم، ومصاحبة الأولاد والعجائز وأولئك الذين لا يطحنهم ضغط الحياة اليومية. فالعجائز على سبيل المثال يعرفن الكثير، لكنهن لا يبحن بما يعرفنه بسهولة لأن قصصاً

(1) وليام بتلر ييتس: شاعر ومسرحي إنجليزي من أصل آيرلندي، ولد عام 1865 وتوفي عام 1939. يعتبر واحداً من أهم الأدباء والشعراء في القرن العشرين. نال جائزة نوبل للأداب 1923 (م).

كهذه تعتبر سرية، ومنذ عهد قريب فقط أخذت جرأة الناس تزداد لتناول مواضيع الجن وما شابه. ومع هذا يبدو لي أن هناك عدداً لا بأس به من العجائز اللواتي يغادرن هذا العالم قبل إخبار ما يعرفنه من قصص الجن والأرواح وتختفي تلك القصص والأساطير باختفائهن»[1].

ويشرح ييتس كيفية التعامل مع هذه القصص وتناقلها عبر الأجيال قائلاً:

«تُخبِر تقارير الأبرشية الآيرلندية عن كيفية اجتماع الحكاة مساء لمعاينة نسخ الحكايات التي يعرفونها ومقارنتها، وإن اتضح أن أحدهم لديه نسخة مخالفة لنسخ الآخرين، يقومون جميعاً بروي تلك الحكاية ويجري التصويت، وعلى الحكواتي الذي يتضح أنه صاحب النسخة المغايرة لنسخ الجميع، أن يتنازل عن نسخته، ويعتمد في المستقبل النسخة المتفق عليها من قبلهم جميعاً. وهكذا فقد كان تناقل الحكايات يجري بدقة وجدية، فتتم المحافظة على صيغة الحكاية الأصلية كلمة بكلمة من دون زيادة أو نقصان»[2].

---

(1) من مقدمة جامع ومحرر هذه الحكايات عن الإيرلندية، وليام بتلر ييتس والتي نقدم هنا مختصراً لها بسبب شدّة طولها (م).

(2) من مقدمة ييتس.

يؤكد ييتس، الذي اقتفى أثر أولئك الرواة وشاركهم الحياة في أكواخهم الفقيرة «ذات السقوف الدالفة» على بساطة هذه الحكايات التي غدت مع ذلك موازية لآدابنا الحديثة. يقول في مقدمته:

«هذه الحكايات الشعبية مليئة بالبساطة والموسيقى معاً، فهي أدب طبقة من الناس، مازالت تمر عليهم أحداث دورة الحياة المعهودة من ولادة وموت وألم وحب، بالطريقة نفسها منذ قرون. أناسٌ يخمّرون كل شيء يرونه في القلب، ويبدو لهم كل شيء علامة أو رمزاً. ليس لديهم سوى المحراث الذي اخترعه الإنسان القديم، بينما ابن المدينة لديه الآلة التي تؤّلف عنه القصص وتفعل عنه كل شيء، فأدب المدينة أدب محدث نعمة. ولدى الفلاحون أحداث قليلة ولا يسعهم سوى تقليبها مثلما يقلبّون الحطب في مواقدهم حتى لتختلف كل نسخة عن الأخرى وينقلب الخير إلى شر وبالعكس، بينما نحن أبناء المدينة تمر علينا تفاصيل وأحداث كثيرة في اليوم الواحد، لدرجة أن قلوبنا لا تستطيع استيعابها وتحمّلها»[1].

(1) من مقدمة جامع ومحرر هذه الحكايات عن الآيرلندية، وليام بتلر ييتس.

وفي هذا الكتاب اختار لنا وليام بتلر ييتس الكثير من الحكايات، التي سمعها بنفسه من أفواه رواتها- كبادي فلين، العجوز البحار المتقاعد، الذي أكدّ أنه رأى الجن بنفسه وهم يزعجونه، وقد انتشل أحدهم مرة من الماء- أو جمعها من كتّاب سمعوها وأعادوا صياغتها ونشرها مثل كروكر ولوفر وكارلتون وكينيدي وآخرين. حكايات تدخلنا إلى عالم الجنّ الملاعين، والأشباح والعفاريت والساحرات، عرائسُ وعرسانُ البحر، الجميلات الكسولات والأميرات المتكبّرات، العمالقة والنساء ذوات القرون، الزبدة التي ترقص، والجنيّ الذي يصنع الأحذية ويكدس المال، والكثير من الفكاهة والظُرف والسخرية والخيال.

حكاياتٌ مرّت من جيل لجيل ومن لسان للسان ومن قلب لقلب.

تغريد الغضبان

تيير- نا - ن - أوج[1]
أسطورة أودونوجو[2]
توماس كروفتون كروكر

عاش فيما مضى، في فترة يصعب تحديدها لكثرة ما انقضى عليها من سنوات، زعيم قبيلة يدعى أودونوجو، حكم البلاد المحيطة بما كان يسمى «لوج لين» وهي منطقة بحيرة «كيلارني» الآن. ساد في عهده الرخاء والعدل، وعمّ الخصب، وتمتع الناس بالسعادة والرضا. وقد عُرف بمآثره في زمن الحرب وأخلاقه الفاضلة في زمن السلم. وكدليل على عدم تساهله اعتاد أن ينفي كل من يخرق القانون أو يرتكب ما يُوجب العقاب إلى جزيرة ظاهرة للعيان أُطلق عليها إسم «سجن أودونوجو» حتى إنه حبس فيها مرة ابنه بالذات، لتمرده وخروجه على القوانين. وقد انتهى أودونوجو (فليس من الصحة أن نقول: مات) بطريقة فريدة وغامضة في إحدى الولائم العامرة التي

(1) T'YEER-NA-N-OGE تير - نا - ن - أوج : تقول الحكاية إن هناك بلداً بهذا الاسم. يحافظ كل من يقطنه على شبابه مدى الحياة. ليس فيه فرح أو حزن، تغطيه الأشجار الخضراء بالكامل. رجل واحد من الأرض بقي هناك ثلاثمئة عام أمضاها متجولاً على حصانه الأبيض. وحين عاد، وفي اللحظة التي لمست فيها قدمه الأرض، هبطت عليه سنواته الثلاثمئة التي عاشها في تلك البلاد، فوجد نفسه كهلاً يكاد يلامس ظهره التراب ولحيته تكنس الأرض. وهي بلاد يفضلها الجن كثيراً (المؤلف).

(2) O'DONOGHUE أودونوجو : من أساطير الجن في شمال آيرلندا. (أودونوجو اسم لشخصية أسطورية اشتهرت بالعدل والقوة والتمتع بقوى خارقة- المؤلف).

اعتاد إحياءها في مجلسه، محاطاً بأقرب أتباعه، حيث تنبأ بالأحداث التي ستقع في عصور قادمة.

ويُحكى أنه في البداية أصغى الحاضرون له بكل وقار، ثم تحولت مشاعرهم نحو التعجب والدهشة لتنقلب إلى خجل وإحساس بالعار ممتزج بالأسى والحزن، وذلك حين بدأ يعدد بطولات وإصابات وجرائم ومآسي خَلفهم، وقبل أن يُكمل نبوءته، انتصب واقفاً بهدوء، وتقدم بخطوات جليلة، مستقيمة ومنتظمة، نحو البحيرة إلى أن وصل حافة الماء فانغمس فيه بجلال وهدوء. وحين صار في منتصف البحيرة تقريباً توقف لبرهة واستدار نحو الخلف ببطء ناظراً إلى أصدقائه، ثم رفع يده ملوّحاً تلويحة وداع قصيرة اختفى بعدها بلمح البصر.

بقيت ذكرى أودونوجو العطرة، حية مبجّلة في ذاكرة الكثير من الأجيال اللاحقة. وقد جرى الاعتقاد أنهم يقيمون احتفالاً لتخليد ذكرى مغادرته عند مطلع الشمس من كل صباح في شهر مايو. وقِلة من الناس فقط يحظون بشرف رؤيته التي تعتبر فأل خير وبركة. وأما إن قُدرت تلك الرؤية لحشد كبير من الناس، فذلك يعني موسم حصاد وافر الغلال، وهو الشيء الذي لم تكن رعيته تحتاج إلى تمنيه قبل مغادرته لهم.

تعاقبت عدة سنوات منذ آخر ظهور لأودونوجو. وجاء شهر أبريل من ذلك العام بالكثير من العواصف القاسية. لكن حين حل أول صباح في مايو تحسّن الجو وهدأت الرياح وانعكس وجه السماء الصافي على سطح البحيرة كأنه وجه روح نقية هانئة، لم يدنسها الإحساس بأي مشاعر أرضية. وفي الصباح الأول لُمح خيط من ضوء فوق البحيرة اهتز الماء من تحته بينما بقي سطح البحيرة أملس مثل رخام القبر. في الصباح التالي اندفعت، في المكان نفسه، موجة بيضاء كأنها عشرات الجياد الجامحة، وصلت حتى حدود جبال «توميس»، ومن خلف تلك الموجة ظهر محارب بكامل زيه وعتاده وسلاحه يمتطي فرساً مطهمة. برقت كفه البيضاء ملوحة من تحت درعه اللامعة، ومن خلفه رفرف وشاح أزرق. تبعت الفرس حركة الموجة وحطّت به بقوة على الشاطئ كأنها تُنزل كرة أرضية كاملة. ذلك المحارب كان أودونوجو. جاء مُحاطاً بعدد غير معلوم من الفرسان الشبان، والشابات الحسناوات، اللواتي تحركن بخفة ومرح فوق الرمل مثلما تتحرك الجنيات في الهواء. كانت الفتيات مُتصلات ببعضهن بحبال مجدولة من زهور الربيع المنعشة، ويمشين بخطوات متسقة على صوت ألحانهن التي ينشدنها، بينما عبر أودونوجو بمهابة الضفة الغربية للبحيرة. وفجأة استدار بفرسه

وانحرف مبتعداً عن موجة عالية وقفت في وجهه وكادت تكسر عنق فرسه، فاستدارت الحسناوات وتبعنه وهن ما زلن يرقصن ببطء على صوت الموسيقى التي بدأت تتلاشى رويداً رويداً في أذن سامعها الحالم.

يوم دفع الإيجار[1]

جلس بيل دودي على صخرة بالقرب من بحيرة «كيلارني» وأخذ يحدّث نفسه قائلاً: «آه! كم هو واسع عالمنا هذا، لكن ماذا يمكننا أن نفعل فيه، أو إلى أين نستطيع المضي؟ ما العمل؟ غداً يوم دفع الإيجار، و«تيم الحوذي» أقسم إن لم ندفع له فسيرمي أغراضنا في الشارع. ومن المؤكد أنني وجودي والأولاد سنجوع على قارعة الطريق، فليس في جيبي قرش واحد. آه ليتني مت قبل أن أرى هذا اليوم».

هكذا صب بيل دودي شكواه وألمه في مياه أجمل بحيرة، بأمواجها العابثة التي بدت غير عابئة بمأساته، وظلت تتراقص بجذل تحت سماء مايو الصافية. تلك البحيرة المشعة كجوهرة تحت الشمس، الحاضنة منذ القدم، بين خضرتها وصخورها، مساكن الجن وهضاب العمالقة، تُذيب بسحرها كل الأحزان ومع ذلك فإن اليأس يبقى، مع الأسف. لكن بيل دودي لم يكن

---

(1) كاتبها غير معروف (المؤلف).

وحيداً وبلا سند مثلما ظن، كان هناك شخص بالقرب يصغي إليه وسيمد له يد المساعدة من حيث لا يدري. فقد برز من بين الصخور عند حافة البحيرة رجل طويل أنيق، خاطبه قائلاً: «ما مشكلتك أيها المسكين؟».

لم يُفاجئ ظهور الغريب بيل كثيراً، فمن مكان جلوسه يستطيع كشف كل الفضاء المجاور له باستثناء تلك البقعة من الصخور التي تغطي جزءاً من ساحل البحيرة. فكر بيل وهو يجيبه بأنه ربما ينتمي لعالم آخر يقبع هناك أسفل البحيرة. أخبره ببساطة كأنه يتحدث لصديق قديم عن هزال محصوله لهذا الموسم، وكيف أن أحد الأشرار سحر حليبه، وعن إفلاسه وكيف هدده الدائن إن لم يدفع له إيجار المزرعة قبل انتصاف الليلة التالية فسيطرده منها مع زوجته وأولاده. وحين انتهى قال الغريب: «قصتك محزنة حقاً ، لكن ألا تظن أن قلب هذا الدائن سيحن إن شرحت له وضعك بالتفصيل مثلما فعلت معي الآن؟».

رد بيل باستغراب: «قلب! كيف تعتقد حضرتك أن للمالك قلباً! ناهيك عن طمعه بهذه المزرعة وتخطيطه لامتلاكها منذ زمن طويل، إنه ينتظر الفرصة المؤاتية فحسب. لا أتوقع أي رحمة منه على الإطلاق». رفع الغريب كيساً مليئاً بالذهب

ووضعه في قبعة بيل وهو يقول: «خذ هذا يا صديقي المسكين، ادفع إيجارك وأنا سأعرف كيف أنتقم لك منه وأجعله لا يهنأ بهذا الذهب. مازلت أذكر كم كانت الأوضاع مختلفة في قديم الزمان، حين كنتُ أعلق مشنقة رجل خسيس مثل دائنك هذا بغمزة واحدة من عيني».

لكن كلمات الغريب هذه، لم تصل مسامع بيل الذي سحره منظر الذهب وشلّ جميع حواسه، وقبل أن يتمالك نفسه ويرفع رأسه ليعبر له عن شكره، لم يجد الغريب أمامه. تلفت حوله باستغراب باحثاً عنه لكن لم يجد له أثراً، وظن أنه لمح فرساً بيضاء تصهل عند طرف البحيرة التي رآه أتياً منها. فصرخ بدهشة: «أودونوجو[1]، أودونوجو الكريم، المبارك أودونوجو»، ثم ركض كالمجنون ليفرح زوجته جودي بمنظر الذهب.

في يومه التالي انطلق نحو المرابي. لم يدخل عليه متسللاً، حاملاً قبعته بيده، مجرجراً نظراته فوق البلاط، وحانياً ركبتيه كما في المرات السابقة، بل دخل بكل شجاعة واعتداد بالنفس كرجل يدرك أنه حر وقوي. سأله المرابي على الفور: «لماذا لم تخلع قبعتك أيها الرجل؟ ألا تعرف أنك ستقابل سيادتي؟».

(1) راجع قصة (أسطورة أودونوجو). أودونوجو شخصية أسطورية اشتهرت بالعدل والقوة والتمتع بقوى خارقة (م).

فرد بيل: «كل ما أعرفه يا سيدي أني لن أقابل جلالة الملك. وأنا لا أخلع قبعتي إلا لمن أحب وأحترم كجلالته. ومن تعاليم الله الخبير بكل شيء أنه لا يجب احترام المرابين».

عض المرابي شفتيه غضباً وصرخ قائلاً: «أيها الوغد، سأعلمك كيف تهين شخصاً في مقامي، أنسيتَ أنني من يملك السلطة هنا؟».

أجاب بيل ورأسه لا يزال مرفوعاً بكبرياء وتحد، كأنه أحد الملوك: «بحق هذا البلد لم أنسَ».

قال المرابي: «لكن تعال هنا، هل أحضرت لي النقود؟ هذا يوم الدفع وإن وجدتُ المال ناقصاً ولو فلساً واحداً فلن أبقيك في المزرعة ساعة واحدة». فقال بيل من دون أن يبدّل من لهجته الواثقة: «هذا إيجارك، عدَّه وأعطني إيصالاً به». نظر المرابي بدهشة إلى ما وضعه بيل أمامه، لم تكن قطعاً نقدية من فئات صغيرة تافهة كالتي اعتاد رؤيتها، والتي لا تستحق أن يُشعل غليونه بها، بل جنيهات من ذهب حقيقي. عدها المرابي ثم سلم الإيصال لبيل الذي أخذه وانطلق متباهياً به مثلما تفتخر القطة بشاربيها. وحين اختلى بنفسه في مكتبه، نظر إلى الذهب في يده فوجده قد تحول إلى قطع حلوى. ورغم صراخه وشتائمه ظل

ما في يده مجرد قطع حلوى مختومة بصورة رأس الملك مثلما هي الجنيهات الذهبية. ولم يستطع اللحاق ببيل ومحاسبته فهو يحمل في جيبه إيصال الإيجار، ولا فائدة من الإدعاء ضده لأن أحداً لن يصدق الأمر وسيتهمونه بالجنون ويسخرون منه.

وهكذا أصبح بيل منذ تلك الساعة رجلاً غنياً، وظل يتذكر ذلك اليوم المبارك حين التقى أودونوجو، الأمير العظيم، الذي يعيش في أسفل بحيرة «كيلارني».

بحيرة الشفاء[1]

قال صاحبي مشيراً إلى مياه بحيرة «لاولي»[2]: «أترى تلك البحيرة، رغم ما تبدو عليه من ضحالة وقبح بأعشابها المائية الشعثاء تلك، فهي أشهر بحيرة في عموم آيرلندا. يزورها الناس من كل مكان، من فقراء وأغنياء، شيب وشبان، طلباً للعلاج والشفاء من أمراضهم وآلامهم. ففي الأسبوع الماضي تحديداً قدِم سيد فرنسي إلى هنا وكان بحالة سيئة، لكن بيلي رايلي عالجه ورجع إلى بلده قوياً ومعافى كالصخر».

«وكيف شفاه بيلي رايلي؟».

«فعلها بكل بساطة. غرز عصاه الطويلة في قعر البحيرة، واستخدم كتلة الطين العالقة بطرفها بعد أن أخرجها من الماء في علاج الرجل».

«وأي نوع من الطين ذاك؟».

---

(1) منقولة عن مجلة لندن ومجلة دبلن عام 1825 (المؤلف).
(2) Loughleagh لاولي إسم بحيرة مشهورة في آيرلندا (م).

«أي نوع من الطين! الطين الأسود الذي يملأ قعر البحيرة، وباستطاعته شفاء أمراض العالم كلها».

«على هذا فإنها بحيرة مشهورة جداً؟».

«نعم إنها بحيرة مشهورة، لكن ليس فقط بسبب قدرة طينها ومائها على الشفاء، وإنما يُقال إن الجن شيّدوا مدينة رائعة في قعرها. أتعلم لقد رآها شيمس (جايمس) بنفسه حين غطس للبحث عن بقرته المسروقة».

«ومن سرقها؟».

«سأخبرك بالقصة. كان شيمس شاباً فقيراً بسيطاً يعيش مع أمه العجوز في كوخ صغير أسفل الهضبة. عاشا من كدّ شيمس الذي يخرج كل صباح إلى تلك الهضاب القريبة من هذه البحيرة ليرعى البقرة التي يقتاتان من حليبها، وفي الوقت نفسه يجمع في طريقه قشاً للمكانس التي تجدلها أمه ومن ثمنها يشتريان ما يحتاجان إليه من متجر البلدة. وبقرة شيمس اشتهرت بخبثها وذكائها فقد كانت تتبعه أينما ذهب فلم يكن يحتاج إلى الكثير من المراقبة حين يرعى بها.

ومرة أغرتها بقعة معشوشبة بالقرب من هذه البحيرة فتوقفت للرعي وقرر شيمس المتعب من جمع القش طوال اليوم الاستلقاء في مكان ظليل ليستريح قليلاً. وبعد مدة رفع رأسه ليرى على مسافة ليست بالبعيدة مجموعة كبيرة من الجن يلعبون الكرة بنشاط ومهارة لم يرَ شيمس مثيلاً لها من قبل. فصار يراقبهم وقد لفت انتباهه واحد من بينهم تميز بسرعته وخفته وقدرته على التسديد ومتابعة الكرة والقفز والركل أكثر من غيره حتى إنه احتفظ مرة بالكرة لأكثر من نصف ساعة كاملة. وفي لحظة تحمس شيمس كثيراً لذلك اللاعب وصاح مُهللاً: «أحسنت يا بطل».

ولم يكد يُنهي جملته حتى أصابت الكرة إحدى عينيه، فصرخ صرخة مدوية شاتماً أولئك الجن، وهو يفرك عينه المصابة ويقفز في مكانه من شدة الألم. لكنه لم يسمع منهم سوى ضحكات ساخرة ملعونة وهم يتراكضون باتجاه هذه البحيرة ويغطسون فيها واحداً بعد الآخر. حين هدأ الألم في عينه نظر حوله باحثاً عن بقرته ليرجع إلى البيت فلم يجدها. بحث عنها في كل مكان على بعد ميل من هنا دون جدوى، وبما أنه يعرف أن بقرته لن تغادر جانبه بإرادتها فمن المؤكد أنها

سُرقت، لكن لم يخطر له أن الجن الخبثاء قد سرقوها وأخذوها معهم إلى قعر البحيرة، فقرر العودة إلى البيت وإخبار أمه كي يرجعا للبحث عنها في الصباح التالي.

سألته أمه حين دخل البيت: «أين البقرة يا شيمس؟».

فأجاب: «لعنها الله. لا أعرف أين هي». قالت الأم: «أهكذا تجيب أمك العجوز يا ولد، أهذا ما أستحقه منك؟».

رد شيمس: «أرجوكِ يا أمي لا تزيدي على قلبي. همي يكفيني، أين ستكون يعني في مكان ما هنا أو هناك، وغداً لابد من أن تقع عيني عليها. وعلى ذكر العيون لقد كنتُ محظوظاً اليوم وإلا لكنتُ خرجت للبحث عنها غداً بعين واحدة».

فسألت الأم: «لماذا؟ ماذا حدث لعينك؟».

أجاب شيمس: «لو أن الجن الملاعين ضربوني بالكرة مرة ثانية لكنت رجلاً أعمى الآن يا أمي».

فقالت الأم: «هل معنى هذا أن الجن سرقوا بقرتنا؟».

فقال شيمس: «لا، لا يمكن، بقرتنا مخلصة وذكية ولن تقبل بالذهاب معهم حتى ولو كان الشيطان نفسه برفقتهم، ستكون مغفلة لو تركت كل هذا العشب الذي جمعته اليوم لأجلها وتغادر معهم».

واستمرا يتناقشان الليل بطوله حول أمر البقرة. في الصباح حين انطلقا للبحث عنها وبعد أن فتشا في كل مكان يمكنها أن تختبئ فيه رأى شيمس قرنين يشبهان قرنيها بارزين من بقعة طين في مكان ما من البحيرة حيث يضحل ماؤها، فنادى أمه وأخذا يشدان القرنين بكل قوتهما لكن دون أن يتمكنا من انتشال البقرة، فاستعانا ببعض الجيران دون جدوى، وكان لابد من مجيء أهل البلدة جميعاً لشد القرنين. عاد شيمس مع أمه للبيت مبللي الصدر بالدموع، جارين خلفهما جثة البقرة التي سلخاها وقطعا لحمها وغلياه فوق نار كبيرة، مفكرين أنه على الأقل يمكنهما الاقتيات بلحمها لعدة أسابيع قادمة. لكن حين حاولا تذوقه وجداه قاسياً كحجر ولونه أسود كالفحم فرمياه للكلاب الشاردة التي أخذت تشمّه ثم نفرت باشمئزاز، فرمياه في المزبلة. تلك الكارثة كلفت المسكين شيمس غالياً، فقد توجب عليه العمل بمجهود مضاعف حتى يعوض خسارته. فصار يذهب لجمع قش

المكانس صباحاً ومساء وفي إحدى المرات رأى بقرة تشبه بقرته ترعى بالقرب من جنيين أحمري الرأسين. اقترب منهما وقال: «هذه بقرة أمي».

فرد أحدهما: «لا هذا ليس صحيحاً».

فكرر شيمس كلامه: «أقول لكما إنها بقرة أمي».

ثم رمى القش على الأرض وأمسك البقرة من قرنيها ورفض أن يُفلتها فجرها الجنيان من قدميها وغطسا بها في البحيرة، وبالطبع كان شيمس لا يزال ممسكاً بقرنيها فغطس معهم أيضاً. وهناك في القعر، رأى شيمس أجمل وأروع قصر يمكن لعين أن تراه، يتلألأ تحت أشعة الشمس المتسربة من سطح البحيرة، وكاد المنظر يسحره ويرغمه على إرخاء قبضتيه عن قرني البقرة لكنه تمالك نفسه وظل متشبثاً بهما حتى استدعي للمثول أمام زعيمهم. وعندما انفتحت بوابة القصر خرج منها مئات الشبان والشابات المتألقين وقد أحاطوا بالزعيم الذي سأل فوراً: «ما الذي يريده هذا الولد؟». فأجاب شيمس: «أريد بقرة أمي».

فقال الزعيم: «هذه ليست بقرة أمك».

رد شيمس: «هذا ليس صحيحاً. إنني أعرفها مثلما أعرف راحة يدي».

فقال الزعيم: «وأين أضعتها؟».

فشرح له شيمس كل ما حدث.

قال الزعيم: «أعتقد أنك صادق».

ثم أخرج محفظته وقال: «خذ هذا الذهب واشترِ به عشرين بقرة».

لكن شيمس رفض قائلاً: «لا، لا لن تخدعني بهذه الطريقة، أريد البقرة نفسها، إنها بقرة أمي».

فقال الزعيم: «أنت شخص طريف. هيا لماذا لا تبقى معنا في هذا القصر».

رد شيمس: «أفضل العيش مع أمي».

كرر الزعيم عرضه قائلاً: «أيها الأحمق. ابقَ معنا هنا ونعطيك قصراً كاملاً».

فرد شيمس: «أفضل العيش في كوخ أمي».

قال الزعيم : «ألا ترى؟ هنا يمكنك المشي في حدائق تغمرها الزهور وتملأها الثمار». فقال شيمس: «أفضل قطع القش للمكانس فوق قمم الجبال».

قال الزعيم: «هنا يمكنك أن تأكل وتشرب من أطيب المأكولات والمشروبات».

فرد شيمس: «يكفيني حليب بقرتي كل صباح». فصاحت الشابات الجميلات وهن يتحلقن حوله: «أرجوك لا تأخذ البقرة التي تمنحنا الحليب لشاي صباحنا».

رد شيمس: «آه، لكن أمي تحتاج ذلك الحليب أكثر من أي شخص آخر، ويجب أن تحصل عليه. لا تحاولوا معي. أريد بقرتي».

وحين وصلت الأمور لذلك الحد وفشلوا في إقناعه بالكلام، تجمعوا حوله وصاروا يدلقون أمامه الذهب والمجوهرات والكثير من الأشياء النادرة والثمينة وهو يهز رأسه رافضاً ومتمسكاً بقرني البقرة بعناد كالبغل. فأخذوا يضربونه ويشدون شعره ويركلونه حتى هبت ريح قوية فجأة، حملته مع بقرته إلى سطح البحيرة، وفي لمح البصر وجد نفسه جالساً بجانب البقرة على العشب فوق

الهضبة، وبدت له مياه البحيرة هادئة وصافية، كأنها لم تتعكر يوماً منذ بداية الخلق. قاد شيمس البقرة خلفه عائداً للبيت، وكانت سعادة أمه عظيمة حين رأتها، لكن حين صاحت: «ليحرس الله البهيمة» اختفت البقرة كأن الأرض ابتلعتها. وتلك كانت نهاية قصة شيمس وبقرته المسروقة».

وتابع صاحبي وهو ينفض العشب والتراب عن ملابسه وينهض واقفاً: «حان وقت ذهابي الآن لمتابعة البحث عن بقرتي البنية، وأرجو من الله أن يُبعد عيون الجن عنها».

فأكدت له أن يطمئن لأن ذلك لن يحدث، ثم افترقنا.

جزيرة المباركين[1]

جيرالد غريفن

تبرز جزيرة في قلب المحيط الهادر، يسميها بعض الرجال بقعة الشمس والراحة، وآخرون يطلقون عليها اسم «هاي- براسيل»، أي جزيرة المباركين. نحتت في صخورها الأمواج بضرباتها المتواصلة كهوفاً عجيبة. وسنة وراء أخرى لاحت تلك الجزيرة في وسط المحيط، جميلة مزخرفة بالظلال وبالغيوم الذهبية التي تحيطها كستائر من نور، تحجب موقعها في الأسفل، وتجعله سرياً نائياً كجنة عدن.

وقد سمع فلاح بقصة تلك الجزيرة النادرة، فيمم شراعه صوب الشرق ومضى بحثاً عنها. واتجه من «آرا»[2] المقدسة إلى الغرب، إلى «هاي- براسيل» المباركة. لم يُصغِ لأصوات أحبائه على الشاطئ وهم يتوسلون إليه ألا يذهب. ولا اكترث لزفيف الريح، ولا حفل بأي صوت حاول تذكيره بوطنه وأهله وسلامته. ترك كل شيء خلفه ورحل مسرعاً باتجاه «هاي- براسيل، بعيداً، بعيداً.

(1) في الأصل نظمت هذه الحكاية شعراً لكننا آثرنا تحويلها إلى نص نثري (م).
(2) آرا: اسم مناطق جبلية (م).

وحين أشرقت شمس الصباح على المركب المسافر، وومضت من بعيد ابتسامة الجزيرة الظليلة، انطفأ القمر بماء الموج، لكن المسافر لم يصل، وكلما تقدّم أكثر بدت الجزيرة أبعد فأبعد، وحلّ مساء ثان والمسافر لم يصل بعد. هده التعب والحنين، وصار يتذكر أيامه الجميلة في «آرا» المقدسة، التي تركها على شاطئ البحر، وجاء باحثاً عن جزيرة المباركين البعيدة. خاطبته الرياح قائلة: «ارجع يا راش[1]، أيها الحالم، ارجع لأرضك الحبيبة. كيف غادرت وطنك الآمن وسعيت خلف المخاطر، كيف تركت حياتك الهانئة لأجل صورة رسمها خيالك!».

تحدثت الرياح إليه بلسان العقل والمنطق، لكن من دون جدوى، كان حديث القلب أقوى. وحل مساء آخر، ثم آخر، والمسافر مازال يبحر، ويبحر، إلى أن مات في أحضان الموج. فلم يصل جزيرة المباركين، ولم يعد لبلده «آرا» أبداً.

(1) راش: اسم الفلاح المسافر (م).

جزيرة الشبح

جيرالدوس كامبرينسيس[1]

ظهرت فجأة جزيرة بين عدة جزر، أُطلق عليها اسم جزيرة الشبح. وقد استمدت اسمها من الطريقة التي تكونت بها. ففي أحد الأيام الهادئة، رأى سكان تلك الجزر كتلة عملاقة من التراب تُطل برأسها في وسط المحيط، حيث لم يكن هناك أي أرض من قبل أبداً، مما أثار عجبهم. فقال بعضهم: «إنها حوت ضخم، أو وحش مائي عملاق». وانتبه آخرون إلى أنها لا تتحرك فقالوا: «لا، هي أرض». ولكي يقطعوا الشك باليقين قررت مجموعة من شبانهم الإبحار بقارب نحو تلك الجزيرة لاستطلاع أمرها. وعندما اقتربوا كثيراً من شاطئها وهموا بالقفز من المركب، غرقت الجزيرة في الماء تماماً، كأنها لم تك موجودة أصلاً. وفي اليوم التالي عاودت الظهور مرة أخرى، ساخرة منهم بالطريقة نفسها. وفي اليوم الثالث اتبعوا نصيحة عجوز منهم، فأطلقوا باتجاه شاطئها سهماً تبرق في رأسه كتلة من معدن محمى على النار، ثم تمكنوا بعدها من الهبوط فوق أرضها التي وجدوها

---

(1) جيرالدوس كامبرنسيس: ولد عام 1146، أغنى الأدب الشعبي الإيرلندي بالكثير من المؤلفات (المؤلف).

صالحة للعيش. مما يضيف إثباتاً جديداً على أن النار هي من ألدّ أعداء الأشباح. فكل من قُدرت له رؤية شبح ما، يعرف أنه بمجرد إبصاره النار يتلاشى بسرعة خاطفة، لأن الأشباح حساسة تجاه الضوء الذي تبعثه ألسنة النار. فالنار بمكانتها وطبيعتها تُعتبر من أنبل العناصر لأنها شهدت تكون السماء. فالسماء من النار، والكواكب أصلها من النار، والغصن احترق لكنه لم يختفِ، صار ألسنة من لهب يجلس فوقها الشبح المقدس.

القديسون والقساوسة

تنتشر في آيرلندا آبار مقدسة يحج الناس للصلاة قربها بعد أن يراكموا كومة من الحصى الصغيرة التي سيتم جمعها في آخر يوم، لحساب الصلوات على أساس عددها. أحياناً يقومون بروي القصص أثناء قيامهم بذلك، وهنا، فيما سيأتي بعضها. وتتصل جميع هذه القصص بالزمن القديم حيث كتب ملك نورثومبرلاند، آلفريد يقول: «رأيتُ تلك البقعة من آيرلندا، عندما كنتُ منفياً. رأيت نساء محترمات، ورجالاً بعضهم بائس وبعضهم سعيد، موظفين وأشخاصاً عاديين. رأيت ذهباً وفضة ونقوداً، الكثير من القمح والكثير من العسل. وجدت هناك، أناساً أخياراً، قلوبهم غنية بالشفقة، وموائد عامرة ومدناً كثيرة».

وليس ثمة شهداء في هذه القصص، الشيء الذي عابه المؤرخ القديم جيرالدوس على الآيرلنديين حين أشار لعدم تسلمهم لتاج الشهادة، فرد عليه رئيس الأساقفة في «كاشيل» قائلاً: «حسناً، ربما كنا قليلي التحضر متوحشين، لكن لم يحدث أن مد أحدنا

يده بالسوء على قديس، أما الآن وبعد أن دخل بيننا أناس يعرفون كيف يفعلون ذلك، فسيكثر عدد القديسيين الشهداء بالتأكيد» (يقصد الإنجليز، فقد حدثت هذه المواجهة بعد الاحتلال الإنجليزي بفترة قصيرة).

وأجساد القديسين عصية على الفهم ويصعب إرضاؤها، فمرة دُفن في مكان اسمه «ماء الأربعة أميال» المتواجد في «ويكسفورد» على ضفة نهر، جسد شخص وضيع، وقد عُرف عن ذلك المكان أنه يضم الكثير من قبور القديسين، الذين قاموا بنقل قبورهم أثناء الليل إلى الضفة المقابلة من النهر بسبب وجود تلك الجثة بينهم، وقد كان من الأسهل عليهم نقل جثة واحدة إلى الضفة الأخرى بدلاً من نقل قبورهم جميعها، لكنهم قديسون، والقديسون لهم طرقهم الخاصة في فعل كل شيء.

روح القس[1]
ليدي وايلد

اشتهرت المدارس الآيرلندية فيما مضى بمستوى تعليمها العالي وتميزها بتدريس جميع المعارف والعلوم. ولم يكن التعليم حكراً على الأغنياء فقط، فقد تجد فقيراً ما في ذلك الزمن، متفوقاً في درجة معرفته وثقافته على سيد غني في زمننا هذا. وأما بالنسبة إلى القساوسة فقد كان التعليم إلزامياً وضرورياً. وقد شجعت تلك الشهرة الواسعة للمدارس الآيرلندية في العالم كله الكثير من ملوك الدول الأجنبية على إرسال أولادهم للدراسة فيها. وحدث أن وُجِد في إحدى المدارس تلميذ من أبوين فقيرين كادحين، تميز بذكائه الخارق، وقدرته على التحصيل العلمي بجدارة عالية، حتى إنه تفوق على جميع أولاد الملوك والأسياد من أقرانه، وأربك أساتذته ومعلميه أنفسهم حين اتضح جهلهم أمام علمه عدة مرات، كأن يخبرهم مثلاً بشيء لم يسمعوا به قطّ من قبل.

(1) أسطور إيرلندية قديمة. (تشبه قصة فاوستوس وهي الشخصية الرئيسية في الحكاية الشعبية الألمانية عن الساحر والخيميائي الدكتور يوهان جورج فاوست الذي يبرم عقداً مع الشيطان. وأصبحت هذه القصة أساساً لأعمال مسرحية مختلفة لكتاب مختلفين حول العالم ولعل أشهر هذه الأعمال مسرحية الدكتور فاوست لكريستوفر مارلو، وفاوست لغوتيه..الخ) (م).

وإحدى أهم مآثره كانت إبداعه في فن الجدال. فهو على استعداد لمناقشتك بصبر وحنكة حتى يقنعك بأن الأسود أبيض، وحين تُسلّم له بصحة ذلك يعود ويقنعك بالمنطق والحجج نفسها أن الأبيض أسود، أو أنه ليس ثمة ألوان في العالم على الإطلاق.

وعندما شبّ قرر والداه الفخوران جداً به، فعل كل ما في طاقتهما، حتى ولو جاعا، في سبيل أن يصير قساً. وبالفعل هذا ما حدث وأصبح قساً لا مثيل له في آيرلندا كلها. وحافظ على براعته في فن الجدال حتى لم يعد يجرؤ أحد على تحديه، بمن فيهم رؤساء الأساقفة الذين واجههم أكثر من مرة وأظهر جهلهم أمام معرفته.

وبما أنه لم يكن هناك، في ذلك الزمن، معلمون عاديون في المدارس بل كان الأساقفة أنفسهم يؤدون تلك المهمة، وبما أن ذلك الشاب كان أذكاهم فقد قام جميع الملوك الأجانب بإرسال أولادهم للتعلم على يديه طالما يستطيع تأمين مكان لإقامتهم. ومع مرور الوقت منحه ذلك شعوراً عظيماً بالفخر والثقة بالنفس الذي تحول إلى غرور، حتى نسي أصله البسيط، والأسوأ من ذلك نسي أن ما لديه هو نعمة من الله، فأسرف في جداله

لدرجة إنكار وجود المَطهَر[1] وبالتالي عدم وجود الجنة والنار، ثم أنكر وجود الله، وزعم أن الإنسان يولد بلا روح وهو أقرب إلى الكلب أو البقرة، وعندما يموت تكون تلك هي نهاية وجوده في هذا العالم.

كان يقول مثلاً: «من منكم رأى روحاً؟ أتحدى أن يريني أحدكم روحاً واحدة لأؤمن بوجود الروح». فتصعب الإجابة على من حوله ويصمتون. وبعد فترة فقد الجميع إيمانهم بوجود الروح والآخرة، واعتقدوا أنهم أحرار في أن يفعلوا ما يحلو لهم في هذه الدنيا خاصة أن القس نفسه، وهو مثالهم الأعلى، يؤمن بذلك، وقد نفذه على أرض الواقع حين تزوج من فتاة جميلة صغيرة السن[2] وقد كان ذلك بمثابة فضيحة كبيرة لم يستطع القساوسة الآخرون منعها من الحدوث، واكتفوا فقط بعدم حضور القداس أو المشاركة في صلوات الزواج. وقد أنجز هو بنفسه مراسم زواجه مدعوماً من تلامذته أبناء الملوك المستعدين لقتل كل من يعارض ذلك الزواج. وحقاً يا لشقاء أولئك التلاميذ الذين آمنوا به وبكل كلمة قالها. لكن خطره لم يقتصر على العبث بإيمان أولئك الشبان فقط وإنما انتشر في العالم كله. وفي أحد الأيام

(1) 16 المَطهَر: في الديانة المسيحية موضع تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل (حالة عقاب مؤقتة قبل يوم الحساب) (م).
(2) لم يكن من المألوف أن يتزوج رجل الدين (المؤلف).

نزل ملاك من السماء وأخبره بأنه لن يعيش أكثر من أربعة وعشرين ساعة فقط. ارتجف القس وطلب زيادة المهلة، لكن الملاك كان صارماً وأعلمه أن ذلك مستحيل. ثم سأله قائلاً: «ولماذا تريد مزيداً من الوقت أيها الخاطئ؟».

فرجاه القس قائلاً: «آه يا سيدي ارحم روحي المسكينة».

فقال الملاك: «هكذا إذن، صار لديك روح الآن؟ قل لي كيف عرفت بوجودها في داخلك؟».

فأجاب القس: «إنها ترفرف في داخلي منذ اللحظة التي رأيتك فيها، كم كنت أحمق لأنني لم أؤمن بوجودها من قبل».

قال الملاك: «بالطبع كنتَ أحمق. ما فائدة كل علومك ومعارفك إن لم تكشف لك عن وجود تلك الروح في داخلك!».

فقال القس: «آه يا سيدي، سأموت إذن، أخبرني كم يلزمني من وقت حتى أدخل الجنة؟».

فرد الملاك: «لن تصلها البتة، ألم تنكر وجودها؟».

فسأل القس: «ولكن يا سيدي هل سأذهب للمطهر؟».

أجاب الملاك: «لقد أنكرتَ وجود المطهر كذلك لذلك ستذهب مباشرة للجحيم».

فقال القس: «لكنني أنكرت وجود الجحيم أيضاً يا سيدي، فلا يمكنك إرسالي إلى هناك».

شعر الملاك ببعض الحيرة وقال بعد تفكير: «هذا ما سأفعله بك. أمامك خياران، إما أن تبقى حياً وتعيش مئة عام، تستمتع فيها بكل أنواع المتع ثم تذهب بعدها إلى الجحيم لتبقى روحك هناك للأبد، وإما أن تموت بعد أربع وعشرين ساعة موتاً مفزعاً شديد الألم، وتبقى في المطهر حتى يحين يوم الحساب، وعليك حينها أن تجد شخصاً واحداً مؤمناً يصلي لإنقاذ روحك من السقوط في الجحيم».

لم يحتج القس إلى الوقت ليقرر فقال: «سأختار الموت بعد أربع وعشرين ساعة، فربما أستطيع بها إنقاذ روحي للأبد».

وهكذا أعطاه الملاك بعض التوجيهات عما عليه أن يفعله ثم انصرف. دخل القس بعدها مباشرة القاعة الكبيرة حيث اعتاد الاجتماع بتلامذته من أبناء الملوك وخاطبهم قائلاً: «أخبروني بصراحة ودون أي خوف ماذا تعتقدون حول مسألة الروح، هل يملك الإنسان روحاً».

فأجابوه قائلين: «كنا نعتقد فيما مضى أن للإنسان روحاً يا معلمنا، لكن بفضل تعاليمك فهمنا أن ذلك ليس صحيحاً، كذلك لا يوجد جحيم أو جنة ولا إله. هذا ما تعلمناه منك». شحب وجه القس وصاح بهم: «اسمعوني، كل ما علمتكم إياه كان كذباً. الرب موجود، ولكل إنسان روح خالدة. إنني أؤمن بكل ما أنكرته من قبل».

لكن صوته تلاشى وسط ضحكاتهم التي ارتفعت من كل مكان، ظانين أنه يحتال عليهم ويمتحن قدرتهم على الجدال. ثم اندفعوا قائلين: «أثبت كلامك يا معلمنا. قل لنا من رأى الله من قبل. من رأى روحاً؟».

وماجت الغرفة بالضحك الصاخب. وقف القس وحاول أن يجيب، لكنه أحس بالخرس التام. لم تخرج منه كلمة واحدة. لقد تلاشت فجأة قدرته على النقاش والجدال، وخفَتَ بريقه وقل عنفوانه دفعة واحدة، ولم يبقَ له سوى أن يُخبئ وجهه بين كفيه ويبكي صائحاً: «إن الله موجود، إن الله موجود. ليته يشمل روحي برحمته».

لكن التلامذة عاودوا سخريتهم منه، مستخدمين كلماته قائلين: «أرنا إياه، أرنا ربك هذا». فلم يحتمل هزيمته، وهرب

منهم وقد اشتد يأسه وازداد ألمه لإدراكه أن لا خلاص له وأنه لن يعثر على ذلك المؤمن بينهم.

في البيت حين جلس قرب زوجته خاطب نفسه قائلاً: «من المؤكد أنها ستؤمن، النساء لا يفرطن بإيمانهن البتة». لكنه حين سألها، أخبرته أنها لا تؤمن إلا به، وبما علمها إياه من أنه على الزوجة الايمان بزوجها في البداية والنهاية وقبل أي شيء آخر في الأرض أو السماء. فازدادت خيبته، وترك البيت مسرعاً.

وفي الطريق سأل كل من قابله إن كان يؤمن لكنه تلقى الجواب نفسه من الجميع: «نحن لا نؤمن إلا بما تعلمناه منك».

كان من الواضح أن تعاليمه انتشرت سريعاً في طول البلاد وعرضها. ومع مرور الساعات واقتراب موعد موته، ازداد رعبه وتحول إلى شخص نصف مجنون فارتمى أرضاً في مكان مهجور وأجهش ببكاء مرّ، في اللحظة التي صادف مرور ولد صغير بقربه. تقدم منه قائلاً: «ليحرسك الله». فارتعد وقام واقفاً وسأل الولد بلهفة: « أتؤمن بالله؟».

أجاب الولد: «لقد جئتُ من بلاد بعيدة لأعرف المزيد عنه، أيمكنك أن تدلني على أفضل مدرسة في هذه المنطقة؟».

فقال القس: «أفضل مدرسة وأفضل معلم هما بقربك الآن» ثم أعلن للولد عن اسمه. فقال الولد: «لا، لا لن أذهب لذلك المعلم. فقد سمعت أنه أنكر وجود الله والجنة والنار، وأنكر حتى أن يكون للإنسان روح لأنه لا يستطيع رؤيتها، لكنني سأتحداه عما قريب وأثبت جهله».

أمعن القس النظر في وجه الولد ثم سأله: «كيف ستفعل ذلك؟».

أجاب الولد: «سأسأله إن كانت لديه حياة أن يريني إياها».

فرد القس: «لكنه لن يقدر على فعل ذلك يا ولدي. فالإنسان لديه حياة ليعيشها، لكن لا يستطيع أي منا رؤيتها».

فقال الولد: «إذن ما دمنا متأكدين من امتلاك الإنسان للحياة مع أننا لا نستطيع رؤيتها، فما المانع من أن يكون لدينا روح رغم أنها غير مرئية؟».

حين سمع القس تلك الكلمات ركع أرضاً أمام الولد، يبكي فرحاً، فقد وجد الروح المؤمنة التي ستنقذ روحه يوم الحساب. لقد قابل أخيراً إنساناً مؤمناً. ثم أخبر الفتى بقصته كاملة، كل شروره وخبثه وكبريائه وتجديفه ضد الله، وما هي الطريقة

الوحيدة لإنقاذ روحه. بعدها قال له: «خذ هذا السكين واغمده في صدري واحفر عميقاً في اللحم حتى ترى شحوب الموت يكسو وجهي ثم راقب خروج روحي التي ستكون في طريقها لمقابلة ربها. عندما ترى ذلك أسرع نحو تلاميذي واخبرهم أن يأتوا ويروا كيف غادرت الروح جسد معلمهم، وإن كل ما علمتهم إياه كان كذباً، فالله الذي يعاقب على الخطيئة موجود، وهناك جنة ونار وأن للإنسان روح خالدة في الجنة أو الجحيم حسبما يُقرر لها يوم الحساب».

قال الولد: «سأصلي إلى الله ليمكنني من فعل ذلك». ثم ركع وأخذ يصلي. وعندما انتهى استلّ سكين القس وغمده في صدره وصار يطعنه ويطعنه لكن القس بقي حياً رغم فظاعة الألم الذي أحس به، لأنه لم يكمل الأربع والعشرين ساعة بعد. أخيراً تناقص ألمه بالتدريج وفارق الحياة. رأى الولد الذي لم يتوقف عن مراقبته طوال ذلك الوقت، شيئاً حياً بمنتهى الروعة والجمال، له أربعة أجنحة بيضاء كالثلج، خرج مرفرفاً من جسده ثم أخذ يحوم حول رأسه. ركض الولد لإحضار التلامذة، وعندما جاؤوا ورأوا ذلك الشيء الحي عرفوا أنها روح معلمهم فراقبوها بإعجاب ودهشة وورع، حتى غابت عن أبصارهم بين الغيوم.

وكانت تلك أول فراشة شوهدت في آيرلندا. والجميع يعرف الآن أن الفراشات هي أرواح الناس الميتين تنتظر اللحظة المناسبة لتدخل المطهر، ثم العذاب المؤقت، ثم السلام والراحة.

هُجرت المدارس في آيرلندا بعد تلك الحادثة، فقد زعم الناس أن لا فائدة من التعليم ما دام أذكى رجل في البلاد لم يعلم بوجود روحه حتى اللحظة التي أوشك فيها على خسارتها، وتم إنقاذه على يد فتى بسيط مؤمن.

قس كولوني[1]
وليام بتلر ييتس

الأب الطيّب «جون أوهارت»

ركب حصانه في «زمن العقوبات»[2]

منطلقاً إلى منزل «الشونين»[3]،

المتنعّم بالحرية في أرضه،

والمتبخّتر فيها بغطرسة الجُهلول[4].

بالخديعة استملك تلك الأرض من جون،

---

(1) Colony تقع كولوني على بعد بضعة أميال من بلدة سليجو. عاش الأب أوهارت هناك في القرن الماضي، وكان محبوباً جداً (المؤلف).

(2) Penal days في القرن الثامن عشر، بعد مرور قرن على الاحتلال الإنجليزي لآيرلندا، جرى خرق لمعاهدة السلم والأمن على الأرواح والممتلكات والمعتقدات الدينية وتعرض السكان الأصليون من شعوب السلتيين إلى مذابح وجرائم واغتصاب للأراضي والممتلكات فأطلق المؤرخون على تلك الفترة اسم «زمن العقوبات» (المؤلف).

(3) shoneen يبدو أنه لقب للضباط الإنجليز كان مستخدماً من قبل المواطنين الآيرلنديين. ورد ذكر الكلمة في كتاب (عوليس) لجيمس جويس وكان يتحدث عن قصيدة ييتس نفسها: «وهكذا يتحدث المواطنون عن اللغة الآيرلندية ولقاء التعاون وكل هذه الأشياء وعن الشونين الذين لا يستطيعون التحدث باللغة الآيرلندية الام...» (م).

(4) الجهلول طير رفيع الساقين طويل المنقار، يمكنه إقحامه في أضيق الأماكن للحصول على صيده (م).

وقدمها مَهراً لبناته اللواتي تزّوجن من الأجانب.

(ولا عجب، فكل سلالته من الخبثاء)[1].

لكن الأب جون لم يستسلم.

ساعياً من هنا لهناك،

امتلأ حذاؤه بثقوب صغيرة،

وتمزق ثوبه،

وبقي متفائلاً.

كان محبوباً من كل الناس، باستثناء «الشونين»

ليت الشيطان يسحبهم من شعرهم إليه،

واحداً بعد الآخر،

هم وزوجاتهم وأولادهم وحتى قططهم وطيورهم.

الأب جون محرر الطيور.

يفتح لها أبواب الأقفاص، لتحلق حرة في الفضاء.

(1) انظر رقم 3-2

يودّعها بابتسامة وكلمة «مع السلامة»،

ثم يتابع طريقه متجهماً من الهمّ.

إن مات أحدهم وبكى النائحون بأصوات الغربان،

ينهاهم عن العويل،

فهو رجل المنطق والإيمان.

وحين فارق هو نفسه الحياة،

عن عمر ناهز الرابعة والتسعين،

لم يبقَ شخص واحد لم يأسف عليه،

أو يأتي قاصداً «كولوني» من أقاصي الأرض.

لا لم يكن نُواحاً بشرياً ذاك الذي سُمع في جنازته،

كان غناء آلاف الطيور الكئيبة من «ناكناريا»[1]
و«ناكناشي»[2]

(1) Knochnarea على بعد أربعة أميال من سليجو (القرية من كولوني) وهي هضبة معزولة مسطحة ترتفع بروؤس صخرية فوق السهول المحيطة (م).
(2) Knocknashee هضبة مماثلة في آيرلندا (م).

من «إنيس ميري»[1] جاؤوا لتشييع الجنازة،

ثم غادروا دون لمس طعام أو شراب،

فهذه عادات قديمة،

على الجميع احترامها.

(1) Innismurry إنس ميري جزيرة إيرلندية مقدسة لكثرة انتشار الأديرة وأماكن العبادة فيها (م).

قصة العصفور الصغير[1]

توماس كروفتون كروكر

منذ زمن بعيد كان هناك راهب شديد الإيمان والتقوى، ومرة، وبينما هو راكع في حديقة الدير يصلي، سمع أغنية فريدة في روعتها، قادمة من عصفور صغير، يغرد فوق أغصان إحدى شجيرات الورد الجوري. فقطع الراهب صلاته ونهض كي يصغي للأغنية التي كانت كأنها لحن سماوي لم تسمع أذنه بمثل جماله من قبل. بقي العصفور يغني لبعض الوقت فوق أغصان الوردة الجورية ثم طار إلى بستان بالقرب من الدير، فتبعه الراهب الذي لم يكن قد اكتفى بعد من الإصغاء لصوته العذب. وظل العصفور يتنقّل من شجرة إلى أخرى، مبتعداً في كل مرة أكثر فأكثر عن الدير، والراهب يلحق به أبعد فأبعد، وما زال مصغياً له بدهشة واستمتاع. لكن اقتراب المساء أرغم الراهب على الرجوع إلى الدير، وفي طريق عودته رأى أجمل غروب في حياته، حيث امتزجت زرقة السماء بجميع ألوان الأرض. وعندما وصل الدير كان الظلام قد حل.

(1) يؤكد المؤلف كروفتون أنه كتبها مثلما سمعها من امرأة عجوز كلمة بكلمة (المؤلف).

اندهش الراهب حين نظر حوله فرأى وجوهاً غير مألوفة تحيط به. وحتى الدير نفسه بدا له غريباً وكأن قوة ما غيرته، كذلك الحديقة ظهرت مختلفة عن تلك التي سمع فيها غناء العصفور في الصباح. ووسط حيرته واندهاشه استغلّ اقتراب أحد الرهبان ليستوضح منه عما يراه فسأله قائلاً: «ما سبب كل هذه التغيرات الغريبة التي حصلت هنا بعد فترة الصباح يا أخي؟». تعجب الراهب من سؤاله ذلك أنه لم يلحظ أي تغييرات فأجابه قائلاً: «لماذا تسأل هذا السؤال الغريب يا أخي، وما هو اسمك؟ فأنت ترتدي زيّنا مع أننا لم نرك البتة من قبل».

فأخبره الراهب التقيّ باسمه، وروى له كيف تبع العصفور في صباح هذا اليوم إلى البستان المجاور للدير حتى حل المساء وكان عليه أن يرجع. ظل الراهب الآخر يتأمله بتمعن حتى انتهى من كلامه، فأعلمه بأنه سمع قصة راهب خرج منذ مئتي عام من الدير نفسه ولم يعد بعدها أبداً، ولم يعرف أحد مصيره بعد ذلك، وقد كان لذاك الراهب اسم الراهب التقي ذاته. وفي وسط الكلام قاطعه الراهب التقي قائلاً فجأة: «لقد حانت ساعة موتي، وإني أشكرُ الله على كل نعمه وبركاته التي منحني إياها». ثم ركع على الأرض، وتابع يقول: «أرجوك يا أخي اصغِ

لاعترافاتي فإن روحي تفارق جسدي الآن». فأدلى باعترافاته ودُعي له بالغفران، ومُسح بالزيت المقدس، وقبل منتصف الليل فارق الحياة. وهكذا أراد الله إحضار روح الراهب التقي إليه بطريقة رحيمة تليق بإيمانه، فأرسل له ذلك العصفور الذي لم يكن في الحقيقة سوى واحد من ملائكته الصغار.

الملك أوتول وإوزته

صموئيل لوفر

ظننتُ يا سيدي أنه لم يبق في هذا العالم من لم يسمع بقصة الملك أوتول، لكن يبدو أنه من الصعب تفادي صفة الجهل في الإنسان. وبما أنك للأسف لا تعرفها أيضاً، فسأرويها لك. كان يا مكان في قديم الزمان، ملك عجوز عظيم اسمه أوتول، يملك جميع الكنائس في زمنه، ويحب الرياضة كحبه لحياته وخاصة رياضة صيد الغزلان التي ينطلق لأجلها نحو الجبال منذ الصباح الباكر وحتى المساء. وبقيت حياته تجري على ما يرام، حتى جاء يوم وتقدمت فيه السن، ووهنت عظامه، ولم يعد باستطاعته الخروج للصيد، فلم يجد المسكين ما يسلي نفسه به إلا إوزة، نعم، بإمكانك أن تضحك كما يحلو لك لكنني سأتابع القصة وأخبرك كيف قامت الإوزة بتسليته. ففي كل أيام الأسبوع كانت الإوزة تسبح في البحيرة بينما يتأملها الملك ويستمتع بمنظرها، وفي يوم الجمعة تحديداً، كانت تغطس في قلب البحيرة وتصطاد له سمكة سلمون. وعلى هذا النحو عادت الحياة تسير

بشكل حسن حتى تقدمت الإوزة في السن مثل صاحبها، ولم تعد تستطيع الغطس أو السباحة.

وذات صباح تمشى الملك على ضفة البحيرة يتأمل مصيره البائس بحسرة، وتملكه اليأس تماماً حتى رغب بإغراق نفسه في الماء. لكن في تلك اللحظة لمح شاباً وسيماً قادماً نحوه فحياه الملك قائلاً: «ليحرسك الله».

فرد الشاب: «ليحرسك الله أنت أيضاً أيها الملك أوتول».

فقال الملك: «أنا حقاً الملك أوتول، ملك كل هذه النواحي من البلاد، لكن كيف عرفت ذلك؟».

رد الشاب: «لا عليك كيف عرفتُ».

أتعلم، إن ذلك الشاب لم يكن سوى القديس كيفن متخفياً بهيئة شاب عادي. فقد قال للملك أيضاً: «لا تشغل بالك كيف عرفتك، فأنا أعرف أكثر من ذلك بكثير. لكن قل لي كيف حال إوزتك أيها الملك أوتول؟».

أجاب الملك: «وكيف عرفت أنه لدي إوزة أيضاً؟».

فرد القديس كفين: «لا تهتم، حدسي أعلمني بذلك».

استمرا يتحادثان هكذا حتى سأله الملك: «من أنت؟».

أجاب القديس كيفين: «أنا رجل صالح».

فقال الملك: «وهل يكفي أن تكون رجلاً صالحاً لتجني رزقك؟».

رد القديس: «أجني رزقي من تحويل الأشياء القديمة إلى أخرى جديدة».

قال الملك: «أأنت سمكري؟»

فأجاب القديس كيفن: «أنا أفضل من ذلك، لأنني لا أتقاضى أجراً عن عملي. ماذا تقول أيها الملك أوتول لو أعدت لك إوزتك شابة مثلما كانت؟».

وماذا بوسعي القول يا عزيزي؟ عندما سمع الملك تلك الكلمات كادت عيناه تقفزان من وجهه لشدة سروره، فأطلق صفرة لإوزته كي تأتي إليه. وحين رآها القديس قال للملك: «اطمئن سأنفذ ما وعدتك به».

فرد الملك: «إن فعلت ذلك حقاً سأعترف بأنك أذكى رجل تحت السماوات السبع».

فقال القديس: «هذا لا يكفي، فلستُ ممن يغريهم المديح، ماذا ستعطيني إن أعدت إوزتك شابة مثلما كانت؟».

أجاب الملك: «أعطيك كل ما تطلبه».

فقال القديس: «حسناً هذا عدل. هل تعطيني كل الأراضي التي ستطير إوزتك فوقها بعد أن أعيد لها شبابها؟».

أجاب الملك: «نعم أعطيك إياها».

قال القديس: «ألن تتراجع عن كلمتك أبداً؟».

رد الملك: «وعد شرف».

فكرر القديس خلفه: «وعد شرف، اتفقنا». ثم قال للإوزة المسكينة: «تعالي هنا أيتها المخلوقة الضعيفة المسكينة». أمسك بها من جناحيها وقال لها: «طيري فإني أباركك». ثم أطلقها في الهواء. انطلقت الإوزة تحلق بكل مهارة بينما صاح هو بفرح: «أترى كيف شفيتها ببركتي وكأنها واحدة من الملائكة». وبالفعل إنه لمنظر رائع يا عزيزي لو رأيت الملك حينها واقفاً على ذاك النحو، فاغراً فمه بدهشة، يحدق في إوزته التي طارت بخفة لم تكن

لديها من قبل. وعندما حطت بقربه مسَّد جناحيها قائلاً: «كم كنتِ رائعة أيتها الغالية».

قال القديس: «وما رأيك بي أنا؟».

فقال الملك: «ليس لدي ما أقوله، يعجز لساني عن وصف براعة فنك».

فسأله القديس: «أهذا كل ما يمكنك قوله؟».

أجاب الملك: «وأضيف بأنني ممتن لك كثيراً».

قال القديس: «لكن ألن تعطيني الأرض التي طارت الإوزة فوقها؟».

رد الملك: «بالطبع سأعطيك بكل سرور، مع أنها آخر قطعة أرض أملكها».

فسأل القديس: «ومع ذلك ستحافظ على وعدك أليس كذلك؟».

أجاب الملك: «بكل تأكيد».

فقال القديس: «لقد أحسنت القول أيها الملك أوتول، لأنك لو أخلفت وعدك لعادت إوزتك عجوزاً ضعيفة لا تقدر حتى على مجرد المشي».

وهكذا وفى الملك بوعده وكان عند حسن ظن القديس الذي أسعده ذلك فكشف نفسه للملك قائلاً: «أيها الملك أوتول أنت رجل محترم، لقد جئت لأمتحنك ورغم أنك لا تعرفني فقد وفيت بوعدك لي».

فسأل الملك: «من أنت بحق السماء؟».

أجاب القديس: «أنا القديس كيفن». ورسم علامة الصليب على صدره وفعل الملك بالمثل، وهو يركع أمامه خاشعا متسائلاً: «أكنتُ أتحدثُ طوال هذا الوقت للقديس كيفن من دون أن أعلم؟ وأنا الذي ظننتكَ مجرد ولد طيب!». وتعاقبت الأعوام والقديس كيفن يرعى الملك أوتول الذي عادت لحياته البهجة منذ رجعت إوزته شابة مثلما كانت، تسبح طوال أيام الأسبوع وتصطاد له سمكة سلمون كل يوم جمعة. إلى أن جاء يوم وقتلتها إحدى أسماك الإنكليس السامة[1]، لكن الملك لم يأكل من لحمها، لأنه لم يجرؤ على أكل ما لمسته يدا القديس كيفن المباركتين.

---

(1) Eel سمك الإنكليس أو الأنقليس (م).

القطُ الشيطانُ[1]
ليدي وايلد

يحكى أنه عاش مرة في «كونيمارا» صياد سمك محظوظ. مما جعل زوجته محظوظة بالمثل لوفرة مخزونها من السمك الجاهز في أي وقت للبيع. لكن ما كان يقلقها ويثير غضبها دائماً، اكتشافها أن قطاً ضخماً يتسلل في أثناء الليل ويلتهم أفضل الأسماك لديها. فقررت ترقبه، مبقية بقربها على عصى كبيرة. وفي أحد الأيام جلست تغزل مع جارتها، حين أظلم البيت فجأة، وانفتح الباب على مصراعيه بقوة ليدخل منه قط أسود كبير، توجه نحو الموقد وأخذ يهِرّ عليهما. قالت فتاة كانت تعاين بعض الأسماك بجانبهما: «يا إلهي، إنه الشيطان بذاته». فرد القط بغضب: «سأعلّمكِ كيف تشتمينني». ووثب على الفتاة بمخالبه، فخمش ذراعيها، ولم يتركها حتى سال الدم منهما. ثم قال لها: «حسناً، الآن تعلمتِ كيف تحترمين سيداً مثلي». بعدها خرج وأغلق الباب خلفه حتى لا يلحق أحد به. وصادف في تلك اللحظة مرور

(1) أسطورة آيرلندية قديمة (المؤلف).

رجل بالقرب، وقد سمع بكاء الفتاة وصراخها فحاول دخول البيت لكن القط وقف على العتبة ومنعه. هاجمه الرجل بعصاه لكنه كان أقوى منه حيث وثب عليه وبطحه أرضاً ومزق ذراعيه وأدمى وجهه وأرغمه على الهرب. عاد القط وفحص الأسماك الممددة على الطاولة ثم قال: «حان الآن موعد عشائي. أتمنى أن تكون الأسماك جيدة اليوم».
ثم خاطب الزوجة قائلاً: «إياك وإزعاجي أو مضايقتي بأي صوت أو حركة. سأخدم نفسي بنفسي» وقام بالقفز على الطاولة وبدأ بالتهام أفضل سمكة، وبين الحين والآخر كان يهِرّ في وجه المرأة التي صرخت عليه بصوت حاد من شأنه طرد أشرس القطط لو لم يكن شيطاناً: «ابتعد عن السمكة أيها الوحش الشرير، لن تنال منيّ اليوم». لكنه لم يفعل سوى التقطيب بوجهها ومتابعة تمزيق السمكة والتهامها. لجأت الزوجة مع جارتها للعصي وبدأتا بضربه ضرباً مبرحاً، جعله يقطع وجبته ويهرّ عليهما ويبصق ناراً من فمه في وجهيهما، ثم قفز عليهما بمخالبه ومزّق أذرعهما ورأسيهما حتى سال الدم منهما وفرتا من الخوف راكضتين نحو الخارج. لكن بعد مدة قصيرة رجعت صاحبة البيت تحمل في يدها زجاجة مليئة بالماء المقدس، وحين دخلت وجدته لا يزال يلتهم السمكة

دون اكتراث. فتسللت بهدوء وحذر ورشته بالماء المقدّس. وما هي إلا لحظات حتى ملأ دخان أسود المكان كله، ولم يبقَ واضحاً من جسده شيء سوى عينين حمراوين ملتهبتين كجمرتين في الظلام. بعدها بدأ الدخان يتلاشى بالتدريج وبان جسد المخلوق القبيح الذي كان يحترق ببطء ثم اختفى تماماً. ومنذ ذلك الحين صارت الأسماك بأمان لأن قوة الشر قد كُسرت، وتوقف القط الشيطانُ عن الظهور.

الملعقة الطويلة[1]
باتريك كينيدي

في أحد أيام الصيف انطلق الشيطان وجابي ضرائب مقاطعة «بانتري» في رحلة لحسم نتيجة رهان اتفقا عليه في ليلة سابقة في أثناء تناولهما إبريقاً من الخمر، ينص على أن يتجولا منذ الصباح وحتى غروب الشمس جامعين كل ما يقدران على أخذه من الناس شرط ألا يقبلا بأي شيء لم يعطَ لهما بطيب خاطر، ثم يحسبا من منهما جمع أكثر. فمرا بجانب بيت سمعا فيه امرأة تزجر ابنتها قائلةً: «يا لك من بنت كسولة، ألم تشبعي من النوم بعد، آه لو يأخذك الشيطان ويريحني منك؟».

قال جابي الضرائب لصاحبه الشيطان: «أهلاً وسهلاً، جاءك الرزق يا (نك)[2]».

أجاب الشيطان: «إنسَ أمرها، بالتأكيد لم تقصد ما قالته. دعنا نتابع طريقنا».

(1) قصص من أساطير آيرلندا المشتقة من تراث السلتيين (المؤلف).
(2) أحد أسماء الشيطان (المؤلف).

ثم عبرا بالقرب من منزل آخر وأصغيا لزوجة تعيب على زوجها محاولته رقع حذائه البالي قائلة: «أخ، ما أبخلك من زوج، لماذا لا يخطف الشيطان أمثالك، لا يمكنك التفريط حتى بقشرة بصلة».

فقال الجابي: «وهذا خير آخر في طريقه إليك».

لم يجب الشيطان، بل اكتفى بهز قرنيه وذيله ومتابعة السير. استمر ايمشيان واستمرت الهدايا تُقدَم للشيطان من دون أن يكترث لأي منها، وقد اقتربا مرة من شاب يتلاعب بخفة بخشبتين بين يديه بدلاً من مساعدة أهله في العناية بحقل الذرة، ومرة أخرى من راع ينام منبطحاً على وجهه في الوقت الذي عليه جمع العشب للأبقار، ولم يبادر أي منهما إلى تقديم ولو شربة حليب لجابي الضرائب. أشرفت الشمس على المغيب بعد أن قطعا مسافة طويلة ووصلا حدود بلدة «كولياي». وحين أوشكا على دخول بلدة «مونامولين» رأيا امرأة فقيرة تتناول عشاءها خارج كوخها وعندما لمحتهما يراقبانها من البوابة خاطبت الشيطان قائلة: «ألا تراه؟ إنه محصّل الضرائب، خذه معك وخلصنا من شره».

ردّ الشيطان بسرور: «أخيراً جاءني الفرج، وحصلت على رزقي».

فصاح جابي الضرائب بفزع: «لا، لا، لا. لم تكن المرأة تعني ما تقول».

فقال الشيطان: «بالعكس، بل خرجت كلماتها من صميم القلب، لا عزاء لسيئي الحظ، تعال فأنتَ حصتي». قال ذلك ثم فتح جوف حقيبته السوداء الكبيرة ودس جابي الضرائب فيها.

يصعب علينا التأكد من صحة قيام الشيطان برحلة كهذه، لكن من المؤكد أن أحداً لم يرَ صاحبه جابي الضرائب بعدها أبداً.

الكونتيسه كاثلين كوشي

ظهر فجأة، منذ زمن بعيد في آيرلندا، تاجران لم يسمع أحد عنهما من قبل، ومع ذلك كانا يجيدان التحدث بلغة البلد الأصلية. تميزا بشعريهما الأسودين المعقودين بعصبتين من ذهب، وبملابسهما المنسوجة من أفخر الأقمشة وأندرها. كانا متقاربين في السن، في حوالي الخمسينات تقريباً، وهو ما يفصح عنه شيب في لحيتيهما والتجاعيد على جبهتيهما.

ومع أن النُزل الذي نزلا فيه كان مجهزاً ليلائم ذوقاً مرفهاً كذوقيهما، لكن بدا أن جُلّ ما يهتمان به هو عدّ نقودهما الذهبية التي كان بريقها يشع أثناء قيامهما بذلك من نافذة غرفتهما. وفي أحد الأيام قالت لهما صاحبة النزل: «أيها السيدان، كيف يمكنكما أن تنعُما بكل هذه الثروة، دون أن تفكرا بمساعدة المحتاجين؟».

أجاب أحدهما قائلاً: «أيتها المضيفة الطيبة، لا نُحب تقديم الصدقات للفقراء الشرفاء خوفاً من الوقوع في شرك المحتالين

الذين يدّعون الفاقة والعوز، لكن لو جاء أي محتاج يقرع بابنا طالباً منا حسنة لأعطيناه على الفور».

وهكذا في صباح اليوم التالي انتشرت شائعة مفادها أن رجلين غريبين ثريين يوزعان قطع الذهب على الناس، فاحتشد طابور كبير من البائسين أمام بابهما. بعضهم جاء مرغماً، مطأطأ الجبين خجلاً، وجاء بعضهم الآخر بكل فخر واعتزاز. وما كان يفعله التاجران في الداخل بكل بساطة فقد كان يتلخص بشراء الأرواح للشيطان. حيث يقايضان روح العجوز بعشرين قطعة من الذهب لا غير، وروح المرأة المسنّة بخمسين إن كانت قبيحة وبمئة إن كانت جميلة، وأما روح الشابة فيدفعان لأجلها أعلى الأثمان، لأن الزهرة النضرة هي الأقرب للقلب.

وحدث أن كانت شابة جميلة كملاك تقيم في المدينة حينها، وهي الكونتيسة كاثلين أوشي المحبوبة من الجميع، وخاصة من الفقراء لطيبة قلبها وعطفها عليهم. عندما علمت كاثلين بأفعال التاجرين الشريرة نادت خادمها قائلة: «كم قطعة من الذهب لدي في الصندوق يا باتريك؟»».

«مئة ألف».

«وكم من الجواهر؟».

«ما يوازي قيمة الذهب».

«وكم عندي من قلاع وغابات وأراض؟».

«ضعف البقية».

«فإذن يا باتريك، أريدك أن تبيع كل ما هو ليس بذهب، وتحضر لي ثمنه. لا أنوي الاحتفاظ إلاّ بهذا القصر والبساتين المحيطة به».

وهكذا نُفذت طلبات الكونتيسة كاثلين حرفياً، وقام خادمها بتوزيع الأموال على الفقراء حسب حاجتهم، لكن هذا لم يرضِ رغبات الأرواح الشريرة، التي لم تعد تجد ما تشتريه فقامت بمهاجمة روح الكونتيسة والسيطرة عليها كي تسطو على ممتلكاتها دون أي مقاومة. وبالفعل حسبما تزعم الأسطورة فإنها لم تتمكن من رسم علامة الصليب لحظة رؤيتها لتلك الأرواح، ولو أنها فعلت لنجت. وهكذا خسرت الكونتيسة كل شيء حتى صندوق مجوهراتها، وفقدت قدرتها على مساعدة الفقراء الذين طلبوا نجدتها دون جدوى لأنها انجرفت وراء الإغراء. وحان موعد زيارة جباة الضرائب فوجد الفلاحون أنفسهم أمام خيارين

اثنين، فإما رهن جميع ممتلكاتهم حتى لا يجبروا على دخول السجن ومن ثم التضور جوعاً، وإما بيع أرواحهم للشيطان. وكانت كاثلين تراقب مأساتهم وتلوم نفسها لأنها عاجزة عن مد يد العون إليهم بعد أن تبرعت بقصرها وبساتينها للمحتاجين. وبعد اثنتي عشرة ساعة متواصلة من البكاء وقفت فجأة وكأنها عزمت على أمر ما، ثم خرجت باتجاه ذلك النزل حيث يقطن التاجران. سألاها بجفاء حين رأياها: «ماذا تريدين؟».

«أتشتريان الأرواح؟».

«نعم، بقيت عدة أرواح لم نشترها بعد، وروحك من بينها؟».

«جئت اليوم لأعرض عليكما صفقة».

«وما هي؟».

«عندي روح للبيع لكنها باهظة الثمن».

«الروح الثمينة تستحق العناء، إنها مثل الجوهرة كلما برقت أكثر ازدادت قيمتها».

«إنها روحي».

لمعت عيون الشيطانين الرمادية، وتقوست مخالبهما استعداداً للانقضاض على الضحية، ويا لها من ضحية نقية صافية، عذراء، إنها روح كاثلين التي لا تقدر بثمن.

«وكم تطلبين مقابلها أيتها الجميلة؟».

«مئة وخمسون ألف قطعة من الذهب».

«ستكون بين يديك وتحت أمرك في الحال».

أعطياها ورقاً نفيساً مختوماً بالأسود لتوقعه ففعلت بألم وتسلمت المبلغ. عادت بعدها للبيت وأعطته لخادمها قائلة: «خذ هذا ووزّعه على الفلاحين الفقراء حتى يتمكنوا من تسديد ضرائبهم فلا يخسروا أرواحهم للشيطان». ثم أقفلت باب غرفتها وحبست نفسها في الداخل بعد أن أمرت بألا يزعجها أحد. مرت ثلاثة أيام لم تخرج فيها من الغرفة ولم تطلب أحداً، وحين فتحوا عليها الباب وجدوها متيبسة باردة فقد ماتت من شدة الحزن. ولكن بيع روحها اعتبر لاغياً من قبل الرب، لأن صاحبة تلك الروح قدمت خلال حياتها الكثير من التضحيات كي تحمي أهلها ومواطنيها من الموت الأبدي. وبعد انقضاء عدة أيام زالت المجاعة من آيرلندا واختفى التاجران دون أن يعلم

أحد بمصيرهما، لكن زعم بعض زعموا أنهما محبوسان في سجن الشيطان الذي سيحتجزهما فيه حتى يسترجعا روح كاثلين الهاربة منهما.

الأمنيات الثلاث
وليام كارلتون

كان فيما مضى رجل يدعى بيلي داوسون، عُرف باحتياله وخبثه وكسله. ويقال إنه ينحدر من عائلة داوسون المعروفة، وإلا لما أخذ اسمها على ما أظن. وقد تشرّد بيلي في شبابه وعاش عاطلاً عن العمل، كسولاً حتى بزّ جميع أبناء عصره في ذلك، ولو كان الخمول يُطعم خبزاً لكان بيلي من أغنى الرجال في أوروبا. وهو الابن الوحيد لأبيه الذي امتاز بطيبته عموماً مع قدرته على القيام بأفعال نذلة إن استدعته الحاجة. ويبدو أن بيلي ورث عن عائلته الخصال الحميدة والسيئة معاً، وقد جعلته الحياة يوماً بعد يوم أكثر مكراً وصار معروفاً بعد مدة - كما ذكرت سابقاً- ببراعته في النصب والاحتيال.

حاول والد بيلي، في شبابه المبكر، إيجاد مهنة له فوضعه في دكان حدّاد. بقي بيلي في تلك الصنعة بطريقة أو بأخرى سبع سنوات. ولم يكن من السهل على الحدّاد ضبط بيلي، لذلك كثيراً ما لجأ لمعاقبته على كسله إن نفد صبره، مثلما حدث مرة

حين قال له: «بيل يا ولدي، يعذبني منظرك تتألم من مرض ملعون اسمه الإفراط وأعتقد أنه بإمكاني علاجك، خذ أربعة نقاط من هذا الزيت الذي يدعى زيت البندق وستتحسن على الفور». ثم أعطاه جرعة من زيت البندق جعلت عظام بيلي تصطك من الألم أسبوعاً كاملاً. وهدّده بعدها قائلاً: «بيل يا ولدي، سأجعل منك شاباً مختلفاً، وأقول لك هذا كتلميح، أتمنى أن تفهمه، فكلما تقاعست عن الشغل، عليك تناول جرعة من زيت البندق حتى تشفى».

وبهذه الطريقة أبقى الحداد بيل على الصراط المستقيم لفترة طويلة.

تزوج بيلي امرأة تشبهه في الطباع والسلوك، فإن شرب بيلي تشرب هي، وإن تعارك معها تتعارك معه، وإن تكاسل هو تتكاسل هي. يخدعها فتخدعه بالمثل. وكان من الممتع رؤيتهما حول طعام الفطور، بيلي بعينه اليمين المزرقة من كدماتها، وهي بعينها اليسرى المزرقة من كدماته. وباختصار أصبحا في وقت قصير حديث البلد كله. فقد صار من المألوف رؤية بيلي عائداً في الفجر مترنحاً من السكر، يدخل البيت بمئزره الجلديّ القذر، شاتماً مرّة ومغنياً أو صافراً في مرّات أخرى، ليجد زوجته بثياب

متسخة تجرجر قدميها بخفها الرث، نصف مخمورة أيضاً، وعلى ذراعها طفل تنهره، وقد تحضن بيلي وتقبله أو ترده وتدفعه عنها. وبالطبع فإن حال كهذا لا يمكن دوامه للأبد، فكلاهما كسول سكير مهمل، وقد أصبحت الثرثرة حول عراكهما وسكرهما وخمولهما تسلية الجيران المفضلة، ولم يكن بمقدور تلك التسلية جلب طعام لأولادهما أو كسوة تحميهم من البرد، أو دفع أجرة البيت في آخر الشهر. ومع ذلك ظل بيلي غير مستعد للقيام بأي مبادرة لإصلاح الوضع.

مرة، كان واقفاً بجوار السندان، يفكّر كيف يؤمّن طعام الفطور لأولاده في صباح ذلك اليوم. وزوجته كالعادة تزجر الأولاد صارخة بينما يحومون نصف عراة جائعين بين رجليها. فرأى متسولاً قذر الهيئة طويل اللحية، على درجة كبيرة من الوهن حتى لتحس أنه قد يقع أرضاً بمجرد النفخ عليه. أثار منظره البائس شفقة بيلي فقال له: «ليحرسك الله أيها الرجل العفيف».

فرد الرجل باستجداء وضعف: «وأنت أيضاً أيها الكريم. أيمكنك إعطائي أي شيء آكله، فإني أتضوّر جوعاً، وكما ترى فأنا عجوز ضعيف لا أقوى على العمل لكسب رزقي بعرق جبيني».

«آه أيها الرجل الطيب لو تعرف مع من تتحدث لما طلبت مني الطعام. ها هي زوجتي هناك تلعنني وأولادي يموؤون كالقطط من الجوع، صدّقني أيها العجوز لو كان معي ما أعطيك إياه لفعلتُ فأنا أعرف معنى الجوع».

«نعم يبدو أن حالك أسوأ من حالي، فلديك عائلة تطعمها، أمّا أنا فوحيد وأستطيع تدبر أمري».

«صحيح يا عزيزي، لكن تعال اجلس قرب هذه النار، فالبرد شديد في الخارج وقليل من الدفء لن يضر عظامك».

«شكراً جزيلاً، فعلاً أنا بردان ولن يضرني المكوث قرب ناركم. إنه ليوم شديد البؤس، باركه الله على كل حال».

جلس الرجل بجانب النار التي زاد بيلي من حطبها، وحين أحس بالدفء والراحة يسريان في بدنه نهض كي يغادر، وقبل أن يخرج قال لبيلي: «حسناً لم تكن تملك الطعام، لكنك أعطيتني الدفء. تمنّى ثلاث أمنيات مهما كانت وسأحققها لك».

احتار بيلي بماذا يجيب، فطبيعته الرخوة الكسولة جعلته يحك رأسه قائلاً: «هه، ثلاث أمنيات! هل قلت ثلاث أمنيات؟».

«نعم، ثلاث أمنيات. هذا بالضبط ما قلته».

«ها، أتعلم يا عزيزي أحتاج بعض الوقت لأفكر، اصبر عليّ قليلاً، كل شيء هنا في رأسي أريد فقط بعض الوقت، إنك حقاً الضيف المناسب لصباح بارد كهذا، ليت معي مالاً أشتري به زجاجة ويسكي كي نتقاسمها معاً».

«حسناً دعنا نسمع أمنياتك، فوقتي ضيّق وعليّ الانصراف».

«أترى هذه المطرقة الثقيلة؟ سأتمنى على كل من سيرفعها ألا يستطيع إنزالها من يده إلا بإذني، وإن أذنت له، ألا يتوقف عن الطرق بها حتى آمره بذلك».

«ثانياً، عندي كرسيّ هزّاز، أتمنى أن كل من سيجلس فيه لا يمكنه النهوض إلا إذا سمحت له بذلك».

«وثالثاً، ألا يمد أحد يده لمحفظتي من دون إذني».

صاح الرجل العجوز مستغرباً: «أيها المغفل، لماذا لم تطلب ما ينفعك في إعالة أسرتك المحتاجة، فحالكم كما يبدو لي أكثر بؤساً من الجميع».

قال بيلي: «آه، أتعرف أنني نسيت كل ذلك، أتسمح لي بتغيير واحدة من الأمنيات؟».

رد العجوز بلهجة غاضبة: «اغرب عن وجهي أيها الفاسد، انقضى يوم سعدك. ويبدو أنك لا تعلم إلى من تتحدث، فأنا القديس موروكي، وقد أعطيتك فرصة لتحسين وضعك ووضع عائلتك، لكنك أهملتها أيها التافه، وعليك مواجهة قدرك الآن، هيا لا ترني وجهك بعد اليوم، وإلا أرسلتك لمكان لن تشكو فيه من البرد».

ثم قام بضرب بيلي بهراوته، ثم ركل قطع الفحم المتناثرة أمامه وغادر. ندم بيلي بشدة لأنه لم يتمنَ الحصول على ثروة كبيرة وبدلاً من ذلك تورط في هذه الأمنيات الثلاث السخيفة. وبعد تفكير قرر تسخير أمنياته الغريبة تلك لجعله رجلاً غنياً فعمل على استدراج أثرياء البلد من محامين وقضاة وتجار وموظفين متقاعدين، ودعاهم للجلوس على كرسيه الهزاز، وحين يعلقون فيه يساومهم على أجرة تخليصهم. وهكذا مع مرور الوقت درّت عليه هذه الحيلة الكثير من الأموال لكنه خسر محبة الجيران وأهل البلدة وانكشفت خدعته أخيراً ولم يعد أحد يثق به. ثم جاء يوم أنفق فيه كل ما كسبه من مال بالإضافة

لسمعته التي تلطّخت أكثر من قبل، وارتبطت حسب بعض الشائعات بعالم الجن، فصارت حياته تتدهور بالتدريج بعد أن ازدادت خصوماته مع زوجته وأولاده ونُبذوا جميعهم من قبل الناس واتهموا بالشذوذ عن الأخلاق الحميدة، الشيء الذي أحزنه كثيراً. وفي أحد الأيام بعد أن سُدت جميع الطرق في وجهه مشى في ممر ضيق محاط بالأشجار يحدّث نفسه قائلاً: «حسناً، من الواضح أنني في مـأزق، وعليّ تجريب حظي بطريقة أخرى». ثم رفع صوته منادياً: «نيك[1]، أيها الشيطان الخاطئ، أرني نفسك ودعنا نتفق». ولم يكد يُنهي جملته حتى ظهر سيد عجوز متجهم الملامح قادماً نحوه. عرفه بيلي من الحافر في قدمه، صاح مهلّلاً: «أهلاً نيك».

«أهلاً بيل، ما الأخبار؟».

«لا شيء جديد هنا، أتحمل أنت أي أخبار من الأسفل؟».

«لا أقدر على إجابتك يا بيل، لقد قضيتُ وقتاً قصيراً هناك، ومشاغلي كثيرة فوق الأرض وليس عندي الوقت لأهتم بما يحدث هناك، عندهم، في الأسفل».

(1) نيك: لقب من ألقاب الشيطان (المؤلف).

«ألا توافقني الرأي يا سيدي بأن هذا المكان مناسب للنزهة. دائماً يغريني هذا الموضع بالمشي. فبعد وجبة دسمة يجب على الإنسان التريض».

«وجبة دسمة! لَمَ تكذب يا بيل؟ فأنت تعرف أنك لم تأكل منذ يوم كامل!».

«بالعكس، لقد التهمت فطوراً كبيراً يجعلك تسمن من مجرد شم رائحته».

«حسناً، دعنا من هذا الآن وأخبرني بمَ كنت تغمغم منذ قليل ولماذا ناديتني؟».

«نيك يا عزيزي أنت كامل لا ينقصك سوى زوج سراويل من قماش بريان الرائع».

كان بيلي يحاول جعل صاحبه يبدأ المساومة، فقد سمع مرة أنها طريقة مثالية لجلب الربح على المدى البعيد، لكن رفيقه لم يكن بأقل خبث منه فقد رد عليه: «وما هي نوعية هذا القماش؟».

قال بيلي: «ألم تسمع بالأغنية التي تقول: ليس لدى بريان أولين ما يرتديه، سلخ جلد خروف وارتداه بالمقلوب. اللحم

للخارج والصوف للداخل، كي يبقى منتعشاً ودافئاً في الوقت نفسه. سروال كهذا لن يضرك يا نيك».

«تبدو بمزاج هازل اليوم يا داوسون![1]».

«ولمَ لا؟! أنا رجل ثري، عندي وفرة من الطعام والشراب، وماذا يمكن أن يتمناه الرجل أكثر ذلك؟».

«أعتقد أن ثوباً محترماً يستره ليس بالكثير، فأنت تبدو نصف عار بهذه الخرق التي تلبسها».

«لأني أحتفظ بملابسي الفاخرة لوقت الاحتفال، وما تراني به الآن هو ملابس العمل».

«حسناً، ماذا تريد يا بيل؟ قل بسرعة فليس لديّ الكثير من الوقت كما أخبرتك يا صديقي».

«انظر، إن لديّ عملي الخاص، لكن تجارتي تعاني بعض الاضطراب في الوقت الراهن كما تعلم».

«تكّلم بوضوح أكثر يا صديقي، أنا رجل يحب الاختصار والصراحة ولا أرغب في إضاعة وقتي بالإصغاء لتأتأتك المثيرة للاشمئزاز».

---

(1) أي بيلي. كنيته داوسون (المؤلف).

«حسناً، أريد نقوداً، ما رأيك في هذا؟».

«دعني أفكر، دعني أتأملك». أمسك الشيطان ببيلي وأداره حول نفسه عدة مرات، ثم قال: «بيلي، أولاً تبدو مثل فزاعة الحقول، ولا أعرف بأي ثمن بخس أشتريك لو كنتَ معروضاً للبيع».

«صدّقني إن ثمني سيفوق ثمنك لو دخلتَ في منافسة معي، لن يجد مشتريك في جيبه عملة أقل قيمة من الفلس ليدفعها ثمناً لك».

«دعنا من هذا، إن وافقتَ أن تصبح ملكي لمدة سبع سنوات، أعطيك من المال أكثر من ثمن سلالتك كلها».

«اتفقنا. لكن اترك عائلتي خارج الموضوع. وفي الوقت الحاضر أعطني بعض النقود ولا تكن بخيلاً».

بعد أن استلم بيلي النقود قال له الشيطان: «ألن تعطيني فلس البَرَكة لجلب الحظ الطيب؟».

«شخص خارق القوة مثلك لن يحتاج إلى الحظ، سيكون ذلك كمن يمسح بطن الخنزير بالدهن، ابتعد عني الآن وإلا

قتلت نفسي وجعلتك تخسرني. لقد شوّهتَ أخلاقي بهذا الوقت القصير الذي قضيناه معاً، أحس أنني خسرت طيبتي بصحبتك».

«أهذا ثمن معروفي يا بيلي؟».

«وهل تفهم بالمعروف أنت؟ على كل حال حين تأتي في المرة القادمة ضع عيناً ثالثة في وجهك كي ترى ما أعنيه يا نيكوليس[1]».

بعدها، بدأ بيلي يُظهر غروره بالتدريج، محاولاً إقناع جيرانه بوضعه الجديد. وقد صار بالفعل خلال مدة قصيرة رجلاً عظيماً واسع الثراء، وأولئك الذين احتقروه في الماضي وتأففوا منه وعاملوه بازدراء، صاروا يلاحقونه الآن متزلفين له. ولم يملك بيلي الجرأة أو القوة لوضع حد لأمثالهم من أصدقاء المصلحة، بل على العكس بدا سعيداً برفقتهم، ووصل به الأمر أن صار على استعداد لمعاشرة أي شخص مهما كان وضيعاً أو خسيساً طالما لديه حصان يركبه ومعطف فاخر يرتديه، وشهية مفتوحة لالتهام عشائه. ومع كل ذلك ظل الشخص الكسول المحتال نفسه بصحبة الأغنياء أو من

(1) نيك، نيكولوس، نيكي: كلها تنويعات على اسم الشيطان (المؤلف).

دونهم، رغم أن الغنى يساعد عادة على إخفاء الصفات الرديئة في الإنسان أو على الأقل، التقليل من قبحها. وقبل انقضاء نصف مدة السنوات السبع صار عند بيلي عربة خاصة بخيول مسرجة على الدوام وحوذي يرافقه. ولم يكن يركب العربة دون قفازين أنيقين وخادم يفتح له الباب، وكلمة سيدي تطن في مسامعه أينما توجه.

لكن ما حدث معه فيما يخص علاقته بذلك الصاحب العجوز تنطبق على المثل القائل «من يلاعب القط عليه تحمل خرمشاته». فقد بدأت المبالغ المدفوعة إليه تقل بالتدريج إلى أن جاء زمن وجد جيبه فارغة تماماً، وحان الوقت لامتحان معدن أصدقائه الكثر، الذين أحاطوا به في زمن اليُسر. وقد رأى أن أولئك الأصدقاء حين تأكدوا من إفلاسه وعدم تمكنه من البذخ عليهم كما في السابق فرّوا من حوله مثلما يهرب الغراب من رائحة البارود. ومرة أخرى سقط في مأزق العوز والفقر واضطر لوضع مئزره الجلديّ ودخول دكان الحدادة من جديد. وعاد لعاداته السيئة في المبالغة في الأكل والشرب والعراك مع زوجته وأولاده ومع الناس في الشارع، وخاصة الفقراء منهم الذين أساء لهم وأذلهم بالفعل أو الكلام في

أثناء غناه، فاستغلوا فرصة سقوطه لينتقموا منه. وفي أحد الأيام بعد انتهاء مدة السنوات السبع، كان جالساً أمام دكان الحدادة، جائعاً عابساً، يفكر بكيفية الحصول على بعض الطعام لفطوره وفطور زوجته وأولاده الذين لابد من أنهم يلعنونه في البيت، وإذ بنكي العجوز قادماً نحوه.

حياه بابتسامة ساخرة قائلاً: «صباح الخير يا بيل».

«حيّاك الشيطان. يبدو أن ذاكرتك قوية».

«الاتفاق هو الاتفاق خاصة حين يُبرم بين رجلين شريفين يا بيل، وهنا أقصد بالشريفين أنت وأنا».

«يا صديقي العزيز نيك، كن شهماً واتركني بحالي. لن تسمح لك شهامتك بإثقال رجل غارق في الطين مثلي بأوزار جديدة، فقد خضتَ هذه التجربة بنفسك وتعرف كيف يشعر الرجل حين تنحط مكانته بعد ارتفاعها، اتركني يا صديقي تمشَّ قليلاً، فالهواء النقي سيفيدك أكثر من رفقتي».

«لن ينفعك التهرب مني يا بيلي. إن خدعك قد تنطلي على غيري من الناس. ستأتي معي وتسافر حيثما أشير عليك».

«أمهلني إذن حتى أنتهي من إصلاح هذه الحدوة في يدي فهي لحصان واحد من رفاقك المحامين، وبما أن الكسل من أكبر العيوب فلا تقف هكذا مكتوف اليدين، خذ هذه المطرقة واطرق بها ريثما أنتهي وأتفرغ لك».

حين أنهى بيلي الحدوة نظر باتجاه صاحبه العجوز الذي كان لا يزال منشغلاً بالطرق ثم قال: «يا لك من ماهر، هيا تابع الطرق حتى أذهب للبيت فأودع زوجتي والأولاد ثم ننطلق». ثم خرج دون أي رغبة في العودة. وبقي صاحبه يطرق دون توقف وهو بالضبط ما أراده بيلي حيث قرر تركه في تلك الحالة إلى أجل غير مسمى. بعدها غاب شهراً كاملاً أمضاه مستمتعاً بالتسكع في المدينة والمناطق المجاورة، وحين عاد لدكانه ليرى ما حل بصاحبه الشيطان وجده في حالة يرثى لها من الإنهاك. رأى عرقه يسيل مثل جداول صغيرة على الأرض وما زال يرفع المطرقة ويخبطها على السندان العاري. اتكأ على حائط الدكان بعد أن أمال قبعته على رأسه، ووضع يديه في جيبي سرواله وشرع يصفّر ثم قال ساخراً: «صباح الخير يا نيك».

ردّ الشيطان وهو ما زال يطرق لاهثاً بعنف: «آه، أهذا أنت أيها النذل الخسيس، هه، ليت أكثر اللعنات شدة وقوة ..هه.. وشراً وفتكاً.. هه، وتدميراً..هه، الأكثر أصالة .. هه بين جميع اللعنات تسقط عليك. إني أعلنك هه.. يا بيلي داوسون سيداً في الاحتيال.. هه.. لقد تفوقت على المحامين ..هه.. الذين يعدون رجالاً شرفاء..هه.. مقارنة بك. اعلم أنني سأدّعي عليك لما ألحقت بي من ضرر، وقد قررت ألا أحتك بك بعد اليوم أبداً».

«أنت اليوم عاطفيّ جداً يا نيكي، من أين لك كل هذه المشاعر فجأة، أيها الوغد العجوز! اسمع إن كنت تطرق بكامل رغبتك وإرادتك فلماذا تلومني؟ لن تستطيع القول بإنني أعطيتك مطرقة لتطرق بها فوق سندان فارغ، لكن يبدو أنك شخص حرفي بالغريزة وتحب الكد، أتعلم أنا مثلك يا نيكي أعشق الاجتهاد وأشجّع كل من يشبهني، لذا تابع عملك فقلما تتاح لك هذه الفرصة لاستغلال وقتك بشيء مفيد، وأخشى لو توقفتَ أن تصبح عاملاً رديئاً».

«ترفّق بي يا بيل. لا أصدق أن قلبك يطاوعك على إذلالي أكثر. ولن تقبل بتشويه سمعتك بسلوك وضيع كهذا، فتستغل سقوط سيد محترم وبريء لتسخيره لعمل أحمق لا جدوى منه.

إن الكرم أهم صفاتك يا بيل مع أنك تتمتّع بمزايا حميدة أخرى كما تقول أنت نفسك. أنا أحترم المثابرة، لكن الكرم يجعلك متألقاً أكثر. تعال يا بيل، كن شهماً وحررني».

«إلى اللقاء يا نيكي، سأمرّ عليك مرة كل شهر لأطمئن عليك».

«لا، لا يا بيل، أيها الحقيـ... أقصد أيها الرائع، لا تذهب بسرعة لا تذهب بسرعة قل لي شروطك ودعنا نتفق».

«سبع سنوات أخرى».

«موافق ولكن ..».

«والمبلغ السابق نفسه تضعه عند حذائي هنا».

«جيد، جيد جداً. أنت شخص يسهل التعامل معه، عليّ الاعتراف لك بهذا. لكن سيأتي يوم و .. سيأتي يوم..».

«أرى أنك بدأت تتذمر؟ كلمة أخرى وأضاعف المبلغ».

«لا، لا إنني أفكر فقط بمعنى كلمة شمعة باللاتينية».

«سبع سنوات من الرفاه نفسه نعم أو لا؟».

«الرفاه نفسه؟ ما باليد حيلة موافق يا بيل».

«والآن اترك المطرقة واغرب عن وجهي، لكن ما رأيك لو أخذتَ هذه المطرقة وأعطيتني بالمقابل آه .. ولِمَ كل هذه العجلة؟».

ركض الشيطان بسرعة خاطفة هارباً من الدكان. فناداه بيلي قائلاً: «هيه.. نيكوليس .. ارجع إلى هنا، لقد نسيتَ شيئاً». وهز المطرقة أمام وجهه فاختفى الشيطان بلمح البصر.

عاد بيلي لحياته السابقة، وعاد أصدقاء المصلحة يحومون حوله من جديد بعد أن اخترعوا الأعذار المناسبة لانقطاعهم عنه في أثناء أزمته المالية. قال أحدهم: «قل ما تشاء، بيل داوسون رجل مثاليّ ويتحمل الوجع بكبرياء كأمير».

وقال آخر: «إنه نموذج الرجل المضياف في بيته أو خارجه».

وقال صديق ثالث: «عيبه الوحيد إن كان فيه عيب هو كرمه، وعدم تقديره لقيمة المال، وهذا عيب إيجابيّ بالطبع».

وقال رابع: «إنه حيوي وطاولته عامرة ومشروباته فاخرة، وترحيبه بالأصدقاء جاهزٌ في أي وقت».

وأما الخامس فقال: «وما فائدة المال إن لم يستمتع به في حياته، لن يحمله معه للقبر بالطبع، ولذلك أتمنى له المزيد من الثراء وأن يتسع جزدانه أكثر فأكثر».

وأما في الحقيقة فقد كان كل هؤلاء من أشد الناس احتقاراً له في سرهم مع أنهم يُظهرون العكس مستغلين ضعفه أمام الثناء، وخاصة الثناء على كرمه، فلكيّ يحفزهم على القيام بمديحه كان مستعداً لفعل أي شيء يطلبونه. كان أحياناً يوُزع عليهم مبالغ طائلة دون مناسبة واضحة، لكنه لم يتبرع يوماً للناس المحتاجين بالفعل، كأن يعطي عائلة فقيرة لإطعام أطفالها الجياع، أو أرملة لتشتري دواء لطفلها المريض. وربما لأن مصدر تلك النقود هو جيب الشيطان فكان مفروضاً عليه ألا ينفقها على فعل الخير والإحسان، وبيني وبينك أيها القارئ هناك آلاف الأمثلة المشابهة لسلوك بيلي في عالمنا الحاضر. وهكذا، للمرة الثالثة بدد بيلي كل أمواله وعاد فقيراً من جديد، فابتعد عنه أصدقاؤه مرة أخرى متذرعين بأتفه الحجج لتجنبه. فإن رأوه في الطريق مثلاً بملابس بسيطة، يغيّرون طريقهم، أو إن دعاهم لزيارته وهم متأكدون من خلو بيته مما يؤكل أو يشرب، تملصوا من تلبية الدعوة، وأما إن حاول الاقتراض منهم فكانوا

يتهربون منه بأسلوب لطيف. وإن صادفت زيارته لبيوتهم وقت العشاء، يتخيّلون أنفسهم غائبين عن منازلهم ويطلبون من خدمهم صرفه بالقول: «السيد غير موجود».

وبعد مدة من التسكع كما في المرة السابقة أدرك أنه لا يستطيع الاعتماد إلا على جهده فعاد يشتغل في دكان حدادته، بعد أن وجد نفسه أمام خيارين: إما التعب أو الجوع. وهكذا وكما في المرة السابقة حين تختفي النقود من بين يديه تختفي معها كل مظاهر الأناقة واللباقة المزيّفة، ويرجع بيلي ذلك السكير الذي يشتم ويضرب زوجته وكل من يعترض طريقه، والذي يترنح في أوقات متأخرة من الليل على الطريق، يهذي ويثرثر، متذكراً الزمن الماضي، وكم داس على أكوام النقود في السابق دون اكتراث، وكيف أولم هذا العشاء أو ذاك، و من كان في استقباله من الأكابر والأسياد هنا وهناك.

ذات صباح وقد كان غارقاً بكل وجدانه في شجار عنيف مع زوجته التي لم تفرق بين رأسه وبين السندان فضربته على رأسه بكرسي مكسور، وقام هو بالمقابل برمي مئزره الجلديّ على وجهها وبينما هما على تلك الحال، دخل الشيطان لتذكيره بالاتفاقية البسيطة التي عقداها. واستغل الشيطان تلك الفرصة لتوبيخه فقال له: «أيها الجبان، أهكذا تعامل زوجتك؟».

وقام بتسديد لكمة له على وجهه أوقعته أرضاً. حين رأت الزوجة ذلك اندفعت بكل قوتها وأوقعت الشيطان أرضاً ثم ربضت فوقه وهي تلكمه بقوة وتصيح: «أيها الوغد، هذه كي تتعلم كيف تلكم زوجي، وهذه لأنك تدخلت بين رجل وزوجته. وما المشكلة في كونه يضربني؟ ها أيها الكلب الرخيص؟ ومَن أحقّ من الزوج بضرب زوجته. أعليك أن تحشر أنفك في كل أمر؟».

خلال ذلك كان الشيطان يزحف محاولاً التهرب منها ويحاول اتقاء ضرباتها بيديه، فتلاحقه وتوسعه مزيداً من الركل واللكم ولم تتوقف إلا حين سقط في كرسيّ بيلي الهزاز. فصاح بيلي من بعيد: «بلطف يا جودي، اضربيه بلطف فأنا أكره القسوة. اذهبي وحمّي السيخ على النار، ألديكَ أنف يا نيكوليس؟».

حاول الشيطان النهوض لكنه لم يقدر. فقال بيلي: «نيكوليس، كيف حال ضغطك، لا تبدو لي بحالة جيدة، أقصد تبدو أسوأ من المعتاد». جرّب الشيطان الوقوف مرة أخرى لكنه فشل ثانية. قال بيلي: «شكراً لك يا نيكي على القدوم بنفسك لاصطحابي. في الحقيقة لقد تخيلتُ كم ستكون رحلتي ممتعة تحت إشرافك. اركع على الأرض أيها الخاطئ، فكما تعلم الاتفاق هو الاتفاق

وخاصة حين يُبرم بين رجلين شريفين وبهذا أقصد بينك وبيني أليس كذلك؟ جودي، هل حمي السيخ؟».

كان من الممتع مراقبة وجه الشيطان في تلك اللحظة وعينيه اللتين راحتا تغزلان بين بيلي وزوجته ثم استقرتا على السيخ، الذي بدأ بالاحمرار، مع إدراكه بمدى عجزه عن مبارحة الكرسي. قال أخيراً: «بيلي، لا تنسَ أنني كافأتك على كرمك في المرة السابقة، ولا تنسَ ما بيننا من أعمال».

فرد بيلي: «لا أذكر أنني كنتُ يوماً كريماً معك يا نيكي. لا تكن سخيفاً، لقد أردتُ معرفة المادة التي يتكون أنفك منها، وإن كان مرناً كضميرك أم لا، إن وجدناه قاسياً نطرّيه بلمسة بسيطة من السيخ الحامي».

«كُن رحيماً يا سيد داوسون، أنت تعرف أنه لا يجب أن نختلف، دعنا ننسَ ما حدث وسأمنحك سبع سنوات أخرى».
فقال بيلي وهو يرفع السيخ الحامي عن النار: «هذا كله معروف وماذا أيضاً؟».

«إن كنتَ نسيت صداقتنا يا سيد داوسون، فلا يمكنك أن تنسى صداقتي مع المرحوم أبيك ومن قبله المرحوم جدك، ومن

قبله كنتُ صديقاً لعائلتكم لأكثر من عشرة أجيال مضت، وقد تستمر صداقتي مع عائلتكم لتشمل أولادكم وأحفادكم».

«لا تُكثر من الكلام الفارغ يا نيكي. هيا سأعطيك أنفاً يا صديقي قد تضطر لتأجير من يمشي أمامك لحمل طرفه على كتفيه».

«يا سيد داوسون، سأتعهد برعاية أولادك من بعدك وتمكينهم من الوصول لأعلى المناصب».

«هذا لطف منك، وأنا بالمقابل سأقوم بالمثل تجاه أنفك».

أمسك بيلي بأنف الشيطان ومطه إليه مثل قطعة من الشمع فتملّص من بين يديه واندفع داخل جدران المدخنة حتى خرج من السطح. سلّم بيلي السيخ لزوجته وأحضر سُلماً صعد عليه والتقط الأنف بالقوة وغرس السيخ فيه ثم وضع على رأسه قبعة تعلوها ريشة ونزل عن السلم.

«أصبح لدينا مؤشّر رياح ممتاز، أتحدى آيرلندا بكاملها أن ترى يوماً مؤشّراً بمثل جماله».

بعدها جلس بيلي مع زوجته يضحكان بينما الشيطان رابض في مكانه بأنفه الذي مازال ممتداً داخل المدخنة. ثم قال بيلي لزوجته: «أعتقد أننا قمنا بالواجب بما يخص الأنف يا جودي وكذلك تسلينا بما فيه الكفاية، ما رأيك أيها الشيطان؟».

لم يكد بيلي ينهي كلامه حتى رأى عند قدميه أكداساً من المال وضعها الشيطان قبل أن يتلاشى من أمامه. نظر بيلي نحو زوجته وضجا في ضحكة مجلجلة أوقعتهما أرضاً.

بعد زمن طويل كان بيلي مثلما يقول دائماً عن نفسه «مضطراً للسفر» وبكلمات أخرى نام في أحد الأيام ونسيّ أن يستيقظ بعدها، أو بتعبير مباشر أكثر، مات. وفي العادة عندما يموت إنسان ما، تنتهي قصته بموته، لكن لم يكن الحال كذلك مع بيلي. فبعد رحيله بوقت إلى العالم الآخر، فكر بزيارة القديس موروكي علّه يؤمّن له مكاناً وثيراً للسكن. دق على بابه بأدب جم وحين فتح له حياه قائلاً: «سلام الله على حضرتك». أجاب القديس موروكي: «اذهب من هنا، من غير المسموح للفقراء أمثالك بالدخول». انصرف بيلي وهو في أمس الحاجة لأي مكان يريح فيه عظامه المنهكة من التعب والبرد، وقد أُرسل إلى بوابة سوداء كبيرة وقيل له ستنفتح أمامه بمجرد ذكر اسمه.

«بيلي داوسون».

قال البواب: «ابتعد في الحال، سأدع جلالته يعرف أن الوغد الذي يخشاه كثيراً موجود هنا عند البوابة».

لاحظ بيلي أن مجرد ذكر اسمه يثير الكثير من الضجة والفزع. جاء صاحبه القديم يركض باتجاه البوابة صائحاً: «لا تسمحوا لهذا الحقير بالدخول، أقفلوا البوابة بالقفل والسلاسل، لن أكون بعد اليوم بأمان، ولن أبقى هنا مادام هو موجود، أنفي ما زال يؤلمني، عظامي مازالت تؤلمني بسببه، انقلع أيها الوغد الشرير، لن نسمح لك بالدخول، فأنا أعرفك حق المعرفة».

أدخل بيلي أنفه بين قضبان البوابة وصاح على الشيطان: «ها، أيها الكلب العجوز، أخيراً صرت تخاف مني أليس كذلك؟». تقدم الشيطان من البوابة وقرص أنف بيلي بقوة. أحس بيلي أن سيخاً حامياً انغرس في أنفه كذاك السيخ الذي غرسه في أنف نيكوليس. وبهذا انتهى بيلي إلى مصير شديد البؤس، فقد أصبح يركض كالمجنون من مكان لمكان دون القدرة على الجلوس. ويبدو أن الكحول الذي أسرف في تناوله خلال حياته تحوّل إلى حطب في جسده،

مما أبقى النار مضطرمة في أنفه. كان يقفز من وجعه صارخاً مستجدياً، لكن دون جدوى، فأنفه ظل مشتعلاً مثل جمرة في كل الفصول ليلاً ونهاراً، يحمله كلعنة في وجهه ويدور به من مكان لمكان، باحثاً عن أكثر المستنقعات برودة أو أي بقعة ماء ليغطس فيها.

وتقول الحكاية إنه مازال يدور ويدور حتى ساعتنا هذه، ولم يجد بعد ما يُطفئ النار في أنفه.

العمالقة[1]

(1) عندما بدأ آلهة آيرلندا الوثنيين (تواث- دي- دانان Tuath-De-Danan يتجردون من أهميتهم ويخسرون تقديس وعطاءات الناس بدأت أهميتهم تقل بالتدريج حتى تحولوا إلى جن، وأبطالهم تحولوا إلى عمالقة (المؤلف).

أدراج العمالقة[1]
توماس كروفتون كروكر

يقع فناء قصر رونين القديم على الطريق الواصلة بين «باساج» و«كورك»[2]، والذي يسهُل تمييزه من صف المداخن والجملونات[3] فوق سطحه، الواضحة من أي اتجاه نظر إليها. في ذلك القصر عاش موريس رونين وزوجته مارغريت جولد اللذان عُرفا بقوة البأس وعلو الشأن ولم يُرزقا إلا بولد واحد أسمياه فيليب تيمناً بأحد ملوك إسبانيا.

وفيليب هذا عطس مباشرة بعد أول نفَس بارد استنشقه من هواء عالمنا، واعتُبرت عطسته تلك دليلاً على امتلاكه الذكاء الحاد في المستقبل، وبالفعل كانت سرعة تعلمه مذهلة، فقد مزّق صفحات الألف والباء والتاء من كتاب مبادئ القراءة بمجرد إمساكه للكتاب، وكان ذلك دليلاً آخر على براعته وذكائه فبات فخر أبويه على اعتبار أن ما قام به هو علامة من علامات العبقرية.

(1) من أساطير الجن في جنوب آيرلندا (المؤلف).
(2) أسماء أماكن في آيرلندا (م).
(3) الجملون: الجزء الأعلى المثلث الزوايا من جدار محدد بسطحين متحدرين (م).

وذات صباح اختفى فيليب فجأة وهو على وشك إتمامه عامه السابع، ولم يستطع أحد معرفة مصيره. أُرسل الخدم، راجلين أو راكبين، للبحث عنه في كل الأرجاء والمناطق لكنهم عادوا جميعاً خائبين. وأُعلن عن مكافأة كبيرة لمن يُعطي أية معلومات حول اختفائه أو مكان تواجده لكن دون جدوى، فقد تتالت السنوات والسيد رونين وزوجته لا يعلمان أي شيء عن ابنهما المفقود. وفي ذلك الوقت كان هناك حدّاد متنقل، ماهر، يقيم بالقرب من «كاريجالين»، وكان اسمه روبن كيلي. اشتهر في كل مكان ببراعته في صيانة حذوات الخيول، وتفسير الأحلام، وكثيراً ما كان مفيداً في حفلات التعميد أيضاً، مما جعله صديقاً مقرباً من نصف سكان البلاد. ومرة في منتصف الليل رأى روبن حلماً ظهر فيه فيليب رونين الولد الضائع، يمتطي حصاناً أبيض جميلاً، أخبره كيف صار في قبضة العملاق ماهون ماك ماهون بعد أن خطفه وحمله إلى قصره في قلب الصخر. وقال للحدّاد: «انتهت سنوات خدمتي السبع يا روبن. إن حررتني الليلة أصبح خادمك ومساعدك للأبد»

وأجابه روبن الذي لم تخنه فطنته حتى في نومه: «وكيف أتأكد أن ما تقوله ليس إلا مجرد حلم؟».

فقال له فيليب: «خذ هذه العلامة». ثم قام الولد بشدّ رسن حصانه فصهل الحصان وجمح ثم ركل بحافره وجه روبن الذي حين أفاق بعد أن زأر وشتم من قسوة الألم، وجد علامة حمراء على شكل حدوة حصان محفورة على جبينه. ورغم براعة الحّداد في تفسير الأحلام لكنه احتار في تفسير ذلك الحلم بالذات. ولكي يتأكد مما رآه في حلمه قرر الانطلاق نحو أدراج العمالقة المألوفة جيداً بالنسبة له، والتي لا يجهل أحد مكانها في الحقيقة. كانت تلك الأدراج مؤلفة من كتل كبيرة من الصخر تتراكم فوق بعضها بعض، وترتفع متدرجة من قعر الماء إلى جرف صخريّ يدعى «كاريج ماهون». والغريب أن تتسع تلك الأدراج لخطوات العمالقة العريضة التي تستطيع بقفزة واحدة قطع ميل كامل من الأرض، والتي بمثلها اشتهر العملاق ماك ماهون الذي كان يخوض كما يُقال جولات مصارعة يحضرها الجميع على زمن «فينيان المجيد[1]» الذي صارت زيارة كهفه في أعلى ذلك الجرف الصخري وإلى حيث تقود تلك الأدراج، تقليداً منتشراً في البلاد.

---

(1) Finnian رئيس دير للرهبان في القرن العاشر في آيرلندا. أسس مدارس دينية وتمتع بمكانة عالية في ذلك الوقت (م).

وقبل الشروع في رحلته فكر روبن بضرورة حمل واحد من المحاريث المعدنية معه، تحسباً لأي خطر طارئ أو نزاع محتمل، فقد خَبِر من قبل قدرة مثل هذه الأشياء على حل الخلافات بصمت وبطريقة موفقة. وفي دربه مر على أحد معارفه المقربين الذي قام بعد سماعه تفاصيل الحلم بالتطوع للتجديف به في قاربه. وهكذا بعد العشاء في ليلة هادئة عليلة النسيم، تهادى القارب بهما فوق الأمواج الناعمة حيث لم يعكّر هدوء المساء سوى حركة المجاديف وهي تضرب الماء بانتظام، وصدى أغنيات بعض البحارة القادم من بعيد. وبدا أن الموج نفسه كان في صفهما، فوصلا في وقت قصير إلى الظلال التي تنشرها أدراج العمالقة تحتها على الماء. هناك توقفا، وتطلع روبن بقلق باحثاً عن مدخل لقصر العمالقة الذي يقال إنه يبين لأي شخص يأتي باحثاً عنه بعد منتصف الليل، لكنه وصل هناك في وقت مبكر فصعب عليه في البداية إيجاده. وبعد فترة من الحيرة والضياع استشاط روبن غضباً وقال لصاحبه: «أي زوج من الحمقى نحن كي نأتي هنا اعتماداً على مجرد حلم».

فرد عليه رفيقه: «قل لنفسك هذا الكلام».

لكن في تلك اللحظة لمحا بصيص ضوء منبعث من الجرف وصار يتسع بالتدريج حتى غطى بشعاعه القوي بقعة من الماء باتساع قصر. جرا القارب إلى الشاطئ ونزل روبن يحمل محراثه الحديدي فوق كتفه ودخل بشجاعة من مكان الضوء. وأول ما لمحه، كان مجموعة مختلطة من الوجوه المحفورة في الصخر المكتسية كلها بالعبوس والكآبة، والتي امتزجت ملامحها وبات من الصعب تحديد بداياتها من نهاياتها، فذقن أحدها يمتد ليشكل أنفاً لآخر، وما قد يبدو كعين حادة النظر، يغيم ليصبح فماً مفتوحاً على وسعه، وخطوط جبهة عريضة تتسع لتصبح لحية وجه آخر وهكذا. وكلما أطال روبن في تأمل تلك الوجوه اكتملت معالمها وصارت أوضح. تابع امتداد تلك الوجوه على الجدران حتى وصل إلى مكان معتم ولم يعد يتبين شيئاً من حوله، ثم سمع صوتاً قوياً يشبه صخوراً تنهار، وكأن الكهف سيطبق عليه ويبتلعه حيّاً للأبد، فأحس بالفزع الشديد وقال لنفسه: «إن كنتَ أحمق بالمجيء إلى هنا يا روبن فماذا تعتبر نفسكَ الآن؟».

ولم يكد ينطق حتى رأى ضوءاً يشع من عمق الكهف مثل نجمة في وسط السماء، وفكر بالعودة من حيث أتى لكنه تراجع عن الفكرة خوفاً من الضياع المؤكد، بعد اجتيازه كل تلك

التعرجات والانحناءات التي صادفته منذ دخوله. ولذلك تابع تقدمه باتجاه الضوء الخفيف حتى وصل إلى غرفة واسعة يتدلى من سقفها قنديل، لابد من أنه كان مصدر الضوء الذي رآه من بعيد، ومكّنه في تلك اللحظة من رؤية مجموعة من العمالقة يجلسون حول طاولة صخرية ضخمة جداً، صامتين كالحجارة. جلس العملاق ماهون ماك ماهون نفسه على رأس الطاولة، بلحيته الملكية التي استطالت بمرور الزمن حتى صارت كشريحة من الصخر تلامس الأرض. وهو كان أول من لاحظ وجود روبن فوقف ساحباً بسرعة لحيته كصخرة اقتلعها من جذورها، وتقدم من روبن وسأله: «ماذا تريد؟».

خرس روبن بعد أن عقد الخوف لسانه لكنه تمكن في النهاية من الإجابة بتلعثم: «جئتُ.. جئتُ.. جئتُ للمطالبة بفيليب رونين.. الذي تنتهي خدمته عندكم هذه الليلة».

«ومن أرسلك إلى هنا؟».

«جئتُ من تلقاء نفسي».

«إذن عليك تمييزه بنفسك من بين تلامذتي، لكن إن فشلت واخترت واحداً آخر غيره، ستموت في الحال».

نطق العملاق ذلك ثم قاد روبن إلى قاعة واسعة حسنة الإضاءة اصطف على جانبيها مئات الأولاد بعمر لا يتجاوز السبع سنوات، يرتدون جميعاً ملابس خضراً متطابقة. قال ماهون: «تفضل وتعرف على فيليب رونين لو سمحت، لكن تذكّر لن أعطيك سوى فرصة واحدة».

وقع روبن في حيرة تثير الشفقة، فقد وقف أمامه عدد ضخم جداً من الأولاد الذين يتقاربون في الأعمار والملامح ولون الملابس وشكلها، وهو لم يعد يذكر بوضوح ملامح فيليب حين جاءه في الحلم، فما العمل؟ خطا بخوف أمام الصفوف يتأمل الوجوه وإلى جانبه مشى ماهون بكل وقار وهدوء وكأن الأمر لا يعنيه، وكانت عباءته الحديدية تطرق الأرض من خلفه عند كل خطوة يخطوها، مصدرة صوتاً كالصوت الذي تبعثه مطرقة روبن حين تهبط على السندان.

أوشكا على الانتهاء من الصف الأول كله دون أن ينبسا بكلمة، ففكر روبن في كسب ود العملاق، ولملاطفته ببعض الكلمات قال له: «يا لهم من أولاد أصحاء، رغم بقائهم هنا من دون شمس أو هواء نقي. لابد من أن رعايتك هي السبب».

«طبعاً، أتعرف لقد أعجبني كلامك أيها الحداد، هيا أعطني يدك لأصافحها».

لم يرغب روبن بمصافحة يد العملاق الضخمة فمد له المحراث الحديد الذي كان لا يزال يحمله. قبض العملاق على المحراث بكفه ولواه إلى اليمين وإلى اليسار كمن يقتلع حبة بطاطا وحين رأى الأولاد ذلك انفجروا ضاحكين ومن بين صخبهم وضجيجهم سمع روبن همساً ينادي اسمه فوضع يده فوراً على رأس ذلك الولد وصاح: « هذا هو فيليب رونين».

صرخ الأولاد ببهجة: «نعم هذا هو فيليب رونين، المحظوظ فيليب رونين».

وفي تلك اللحظة أعتمت القاعة فجأة، وسُمع صوت ارتطام وهدير، وعمّت الفوضى لكن روبن تمسك بالولد ولم يعرف كم مر عليه من الوقت حتى وجد نفسه مستلقياً فوق عتبة سلالم العمالقة وفيليب رونين متشبثاً بذراعه. وبما أن لروبن الكثير من الأصدقاء والمعارف فقد انتشرت قصته في كل مكان، وكثيراً ما كان الناس يسألونه قائلين: «أمتأكد أنت من أن الولد الذي حررته هو نفسه فيليب رونين؟». فرغم بقاء الولد سبع سنوات في كهف العملاق، إلا أن حجمه لم يتغير، ولم تتبدل ملامحه، وظل

يحكي عن الأشياء نفسها التي حدثت قبل خطفه مثل شخص يستيقظ من نومه أو كأنها أحداث وقعت في الأمس. وأما روبن فقد أجاب عن ذلك السؤال ساخراً هكذا: «أأنـا متأكد! ما أغرب هذا السؤال! ألا ترون أن له عيني أمه الزرقاوين وشعر أبيه المنتصب، هذا إذا تجاهلنا الثؤلول الصغير الجميل فوق أنفه».

ومن الطبيعي أن يتساءل الغرباء فيما لو أخطأ روبن في التعرف على فيليب الحقيقي أم لا، لكن الشك في هوية فيليب لم يساور أهله على الإطلاق، وكانوا ممتنين لروبن وكافأوه بسخاء يعادل شكرهم وامتنانهم له.

عاش فيليب رونين حتى أصبح رجلاً عجوزاً، وظل حتى يوم وفاته يزاول مهنة الحدادة التي برع فيها كثيراً، ويقال إنه أتقنها خلال تلك السنوات السبع، على يد معلمه العملاق ماهون ماك ماهون.

أسطورة نوك ماني[1]
وليام كارلتون

لن تجدوا رجلاً أو امرأة أو طفلاً في طول آيرلندا وعرضها لم يسمع باسم هيرقل الآيرلندي، بطلنا العظيم فين ماكول، نعم ولا حتى شخص واحد يجهله على طول الطريق من «كيب كلير» وحتى ممر العمالقة[2] ذهاباً وإياباً، ويبدو لي أن ذكر ممر العمالقة، فرصة حسنة لكي أبدأ هذه الحكاية.

حدث أن فين مكول وكل أفراد عائلته العمالقة، كانوا يعملون في بناء الطريق السريعة التي ستصل اسكوتلندا بآيرلندا، وقد قرر فين مكول المغرم بزوجته مغادرة ورشة العمل والرجوع إلى بيته ليطمئن عليها، فقد كانت تعاني قبل رحيله من كثرة القلق والكوابيس. وفي طريقه اقتلع شجرة من جذورها، وصنع من جذعها عصا ليتعكّز عليها. وكانت زوجته التي اسمها أوناه تعيش معه على قمة هضبة «نوك ماني» الشاهقة، والتي تقابل قمة

---

(1) Knockmany نوك مني ، إسم جبل في آيرلندا (م).
(2) ممر العمالقة أو طريق العمالقة وهو نفسه الطريق السريع الذي كان فين وأقرباؤه من العمالقة يعملون في رصفه (م).

مشابهة لها في العلو اسمها «كولامور» تقع إلى الشرق والشرق الغربي كما يقول البحارة حين يرغبون بإرباك أبناء الجبال.

والحقيقة أن سبب عودة فين لبيته لم يكن تماماً انشغال باله على زوجته الحبيبة، فقد كان هناك عملاق آخر- يدّعي البعض أنه اسكوتلندي وآخرون يزعمون أنه آيرلندي- على درجة من القوة والبأس جعلته شرساً ومرهوباً مثل وحش بشريّ. ويقال إنه عندما يغضب يخبط الأرض بقدمه خبطة تجعل البلاد كلها ترتجف كأنها تتعرّض لهزّة أرضيّة. وقد طبقت شهرته الآفاق، وقيل إنه لم يتمكن مخلوق بشريّ قط من قهره. وفيما لو كان ذلك صحيحاً أم لا فلا أستطيع الجزم، لكن تقول القصة إنه بضربة واحدة من قبضته هرس صاعقة وسوّاها كالفطيرة ثم طواها في جيبه ليريها لأعدائه كدليل على قوته وجبروته، ولبث الرعب في قلوبهم قبل مصارعتهم. ومع مرور الوقت لم يبقَ عملاق واحد في آيرلندا - باستثناء فين مكول طبعاً- لم ينازله ويتغلب عليه. وقد أقسم أنه لن يستريح نهاراً أو ليلاً، صيفاً أو شتاء قبل أن يجد فين مكول هذا، ويسقيه من الكأس نفسها التي جرّعها لغيره من العمالقة، ويكسر شوكته مثلما كسر شوكاتهم جميعاً.

لكن فين لم يتحمّس بالدرجة نفسها للقاء عملاق مثله، بمقدوره حين يغضب أن يسبّب هزّة أرضيّة، أو يهرس صاعقة ويضعها في جيبه. ولذلك حاول جهده تفادي ذلك اللقاء كي يحافظ على ماء وجهه كما يُقال، وهو الذي يعتبر نفسه سيّد العمالقة في ديـاره. فكلما شمّ رائحة سوسولين - وهو اسم ذاك العملاق - بالقرب، يسعى للاختفاء عن الأنظار، وهذا ما حدث بالنسبة لقرار عودته إلى البيت، فقد سمع أن سوسولين آتٍ إلى الطريق السريعة لمصارعته، فأحس فجأة بشوق غامر نحو زوجته، ولم يعد يطيق البقاء للحظة واحدة بعيداً عنها.

وهكذا وكما ذكرتُ فقد اقتلع شجرة وصنع من جذعها عصا ليتعكّز عليها في الممر الشاق التي سيصعده نحو بيته القابع أعلى قمة نوك ماني. وفي الحقيقة فإن اختياره لتلك الأرض العالية جداً لبناء بيته فوقها له علاقة أيضاً بسوسولين. رغم أنه يُنكر ذلك حين يسأله الناس مستغربين قائلين: «بحق السماء يا سيد مكول ما الذي يجبرك على العيش في هذه البقعة التي لا تتوقف الرياح عن صفعها نهاراً أو ليلاً صيفاً أو شتاء، ناهيك عن ندرة الماء وصعوبة وصوله إلى ذلك الارتفاع؟». فيرد عليهم بثقة: «بالعكس، بما أنني رجل طويل جداً وضخم مثل برج،

فلا يطيب لي العيش في مكان منخفض مثلكم، يلزمني مسافة فسيحة لمد بصري بحرية، وأين يتحقق لي هذا إلا هنا في قمة نوك ماني. وبالنسبة للماء فإني أخطط لوضع مضخة. أنتظرُ فقط انتهاء العمل في الطريق السريعة حتى أركبها».

بهذه الفلسفة كان فين يدافع عن اختياره العيش في مكان معزول ومرتفع لتلك الدرجة، والحقيقة أنه أراد ذلك ليتمكن من مراقبة قدوم سوسولين عن بعد.

أطل بوجهه من الباب وحيّا زوجته قائلاً: «السلام على كل من في هذا البيت».

قفزت زوجته فرحاً وطارت لعناقه متمتمة: «يا عزيزي يا عزيزي يا نمري».

«كيف حالك يا أوناه، وكيف أمضيتِ الوقت في غيابي؟».

«سعيدة كجندب يقفز بين الأعشاب».

افتعل فين ضحكة مجلجلة ليريها كم يفرحه أن تكون سعيدة في غيابه، وكم تسره عودته للبيت.

«لكن لماذا عدتَ بهذه السرعة؟».

أجابها وهو يدّعي الوقار: «وما الذي سيجبرني على العودة سوى شوقي لرؤية زوجتي الغالية أوناه».

أمضى فين عدة أيام سعيدة مع أونـاه لكن بمرور الوقت عاوده قلقه من سوسولين ولم يستطع إخفاء ذلك عن زوجته التي كانت حاذقة كمعظم النساء في معرفة ما يخفيه أزواجهن فاضطر أخيراً إلى أن يصارحها قائلاً: «إنه أمر هذا السوسولين اللعين الذي يعكّر صفوي، أتعلمين أنه حين غضب مرة حوّل صاعقة إلى فطيرة ووضعها في جيبه وهو الآن في طريقه نحوي ولا أدري ماذا أفعل، فلابد لي من مواجهته، فإن هربتُ سيصمني العار للأبد».

«متى سيأتي؟».

«غداً في حوالي الساعة الثانية على الأغلب سيكون هنا».

«حسناً يا نمري لا تقلق هكذا، اعتمد عليّ فقد أتمكن من إيجاد طريقة أحتال فيها على هذا الوغد».

استراح قلب فين قليلاً لكلام أوناه فهو يعرف أنها ذكية واسعة الحيلة كجنّية طيبة. وكان لأوناه أخت اسمها جرانوا تعيش على قمة «كولامور» المقابلة لقمة «نوك ماني» وغالباً ما

تتبادلان الأحاديث دون أن تغادر الواحدة مكانها، وخاصة في الأماسي الصيفية الهادئة. ففكرت أوناه باستشارة أختها لإيجاد سبيل للتخلص من سوسولين فصاحت عليها: «جرانوا أأنتِ في البيت؟».

«لا، أنا في الخارج أجمع التوت».

«حسناً، اصعدي إلى قمة كولامور وألقِ نظرة وأخبريني بما ترين».

«حسناً أنا هناك الآن».

«ماذا ترين؟».

«يا إلهي أرى أضخم عملاق رأيته في حياتي قادماً نحوكم».

«يا للمصيبة، أتعلمين يا أختي، هذا العملاق هو سوسولين العظيم، وهو قادم لمنازلة فين المسكين، فما العمل؟».

«لا تقلقي سأناديه وألهيه بوجبة دسمة ريثما تفكران أنتِ وزوجكِ بطريقة للتخلص منه. لكن اسمعي ألديك بعض الزبدة فقد لحس عمالقة بيتي الزبدة عن بكرة أبيها».

«سأرمي لك قالباً لكن احذري أن يسقط منك في الوادي».

رمت أوناه قالباً من الزبدة كبيراً بحجم صخرة، لكنها نسيت أن تنطق بالتعويذة المناسبة لمنعه من السقوط، فوقع في الوادي وسط الطريق التي تمر بين الهضبتين قرب «أوغر». لعنته أوناه لأنه خذلها بأن حولته إلى صخرة مازالت إلى يومنا هذا قابعة في ذلك المكان بعلامة من أربعة أصابع وإبهام محفورة عليها.

قالت جرانوا: «لا عليكِ سأحاول تسلية بطنه الكبيرة بحساء القمح، أما أنتِ فلا تضيّعي الوقت وحاولي إيجاد حل لمساعدة زوجك المسكين».

ثم قامت بعدها جرانوا بإشعال نار وصفرت ثلاث صفرات مثلما جرت العادة حين يريد الجبليون دعوة غريب يمر بالقرب، فيجعلونه يعرف أنه مرحب به من سماع الصفرة ورؤية الدخان. وأثناء ذلك كان فين في غاية القلق والضيق يحور ويدور ولا يدري ما يفعل وحين دخلت زوجته بادرها بالقول: «أوناه، ألا يمكنك القيام بأي شيء لإنقاذي؟ سأُمزَق كأرنب أمام عينيكِ، وسيغسلني العار في نظر قبيلتي وأنا الذي ظننت نفسي أفضلهم. جاء هذا المارد سوسولين بصاعقة مطوية في جيبه مثل فطيرة، وهزة أرضية تحت قدمه و ..».

«على رسلك يا فين، الحقيقة أنني بدأتُ أخجل بك، وبمناسبة ذكر الفطيرة، ربما ستتمكن من تسديد لكمة مشابهة له سواء كانت كالصاعقة أم غيرها، فإن لم أطعمه صواعق مشابهة للتي يطعمها للناس لن يكون اسمي أوناه، دعه لي ونفذ ما أطلبه منك بالضبط».

ارتاح فين لكلام زوجته فهو يثق بقدراتها بعد أن خلّصته من مآزق كثيرة في السابق. ومع أن هذا المأزق هو أكبرها على الإطلاق غير أن فين اطمأن لكلام زوجته وتمكن أخيراً من تناول الطعام. سحبت أوناه خيوطها التسعة الملونة، وجدلت كل ثلاث منها معاً، ووضعت واحدة على ذراعها اليمنى وواحدة عند قلبها والثالثة حول كاحلها الأيمن، وهذا ما تفعله دائماً حين تقرر فعل أمر صعب تريد ضمان التوفيق فيه. بعد ذلك استعارت من جيرانها إحدى وعشرين صينية من الحديد حشت بها واحداً وعشرين قرصاً من العجين وخبزتها ووضعتها جانباً في الخزانة ثم حوّلت كمية كبيرة من الحليب إلى جبن ووضعته جانباً مع الخبز في الخزانة. وأما فين فقد ألبسته ثياباً تشبه ملابس الأطفال وجعلته يستلقي في سرير ابنه وغطته بالكامل، الشيء الذي صعب عليه، لما فيه من خدش لكبريائه ورجولته، لكن

ثقته بحكمة أوناه جعلته لا يبالي وينفّذ كلامها حرفياً. وبعد الانتهاء من كل تلك التحضيرات جلست أوناه تنتظر بهدوء قدوم سوسولين. في حوالي الساعة الثانية مثلما توقع فين - الذي عرف ذلك من خلال مصّ إصبعه - وصل سوسولين وبادر بالسلام قائلاً: «السلام على أصحاب هذا البيت. أهنا يسكن فين ماكول العملاق؟».

«وعليك السلام. نعم هنا يسكن. تفضل بالدخول».

«شكراً يا سيدتي. وطبعاً أنتِ السيدة ماكول إن لم أكن مخطئاً؟».

«أنا هي، وليس ثمة ما يعيبني في كوني زوجة السيد ماكول».

«طبعاً لا، فالسيد ماكول مشهور بقوته وشجاعته، ولذلك جاء رجل مثلي، لا يقل قوة وشجاعة عنه لمنازلته، أهو في البيت الآن؟».

«لا، لقد غادر غاضباً، فقد علم من أحدهم أن عملاقاً يدعى سوسولين جاء باحثاً عنه لمنازلته، فغادر بسرعة للحاق به، وفي الحقيقة أتمنى ألا يجده، فإني أشفق على ذلك المسكين سوسولين، لأن زوجي لو أمسكه لحوّله إلى عجينة في غمضة عين».

«في الواقع أنا سوسولين وأبحث عن زوجك منذ سنة، دون أن أتمكن من العثور عليه. ولن يغمض لي جفن قبل وضع يدي عليه».

«لكن هل رأيت فين من قبل؟».

«وكيف يمكنني رؤيته وهو الذي يحاول دائماً التهرّب مني».

«هذا ما حسبته. لكن إن أردت نصيحتي أيها المخلوق المسكين فعليك أن تصلّي صباح مساء داعياً ألا تراه قطّ. وإني أتوقع حضوره في أي لحظة، فإن الرياح تخض الباب، وهذا ما يحدث دائماً حين يقترب زوجي من البيت».

امتقع وجه سوسولين فزعاً، لكنه تمالك نفسه ووقف، وبعد أن شد إصبعه الوسطى وجعلها تفرقع ثلاث مرّات (وهذا ما يفعله عادة لتزويده بالنشاط استعداداً لبدء القتال) خرج وأخذ يحوم مزمجراً حول البيت، وأثناء ذلك أحس فين الذي كان يراقب ويتنصت من تحت الغطاء بسائل- من الأفضل لنا عدم تسميته- ينز من كل مسام بدنه، بينما شعرت أوناه بالاطمئنان معتمدة على غريزتها الأنثوية. وحين عاد خاطبته قائلة: «أتمنى

أن تخدمني خدمة صغيرة بما أن زوجي ليس هنا ليقوم بها، فبعد كل هذا الجفاف والحر نحن بأمس الحاجة لقطرة ماء. هناك نبع تحت تلك الصخور خلف الهضبة وقد كان زوجي يهم برفع الصخور عنه ليكشفه في اللحظة التي سمع فيها بقدومك، فترك كل شيء وهرع غاضباً كما أخبرتك. إن وجدتَ ذلك النبع لن أنسى معروفك أبداً».

وهكذا اصطحبته إلى تلك البقعة حيث وجد في وجهه صخرة عملاقة مسطحة كأنها عدة صخور ممتزجة في صخرة واحدة. بعد النظر إليها لبعض الوقت قام بفرقعة إصبع يده الوسطى تسع مرات وانحنى ورفع الصخرة التي تركت مكانها، إلى يومنا هذا، حفرة بعمق أربعمئة قدم وربع ميل من الطول، والتي أطلق عليها اسم «لام فورد جلين». لم تتمالك أوناه نفسها من شدة الخوف لرؤيتها ذلك، لكنها كانت تعرف أنه لا فائدة من امرأة لا تسيطر على أعصابها ولا تستخدم ذكاءها في وقت الشدة، فقالت له على الفور: «يمكنك العودة إلى البيت الآن، فلابد من أنك جائع، ورغم عدائك لزوجي لكنه بالتأكيد سيغضب لو علم بأنني أسأت ضيافتك».

رافقته إلى الداخل ووضعت أمامه الإحدى وعشرين فطيرة،

وتنكة أو اثنتين من الزبدة، ورطلاً من اللحم المسلوق وكومة كبيرة من الملفوف، وطلبت منه أن يتفضل ويتناول الطعام دون خجل. وبما أن سوسولين كان شرهاً بالإضافة لكونه بطلاً فقد أمسك بفطيرة، حشرها كاملة في فمه ولاكها بقوة، ليسمع فين وأوناه في تلك اللحظة، صوتاً مرعباً يشبه الجعير: «اللعنة، ما هذا؟ سقط سنان من أسناني! أي نوع من الخبز هذا الذي أعطيتني؟» فردت أوناه باسترخاء: «ما الأمر؟».

«تسألين ما الأمر! ألا ترين؟ أفضل سنين في فمي وقعا بسببه».

«لكن هذا خبز فين المفضل، وفي الحقيقة هو لا يأكل غيره حين يكون في البيت. لكن سامحني أرجوك لقد نسيت أن لا أحد غيره، مع ابنه النائم هناك في ذاك المهد، من يستطيع تناول مثل هذا الخبز، ورغم أنني لم أتوقع منك أن تقدر على ذلك بناء على حجمك الضئيل، لكن قلتُ في نفسي عليّ ألا أقلل من قيمة رجل جاء يتحدى فين. هيا جرّب هذه الفطيرة فربما تكون أقل قسوة من تلك». في ذلك الحين كان سوسولين قد فقد شهيته تماماً، لكنه قضم الفطيرة الثانية كتحد، وعلى الفور زار بصوت أعلى بمرتين من سابقه وقال: «بئس الأمر، خذي خبزك عنيّ وإلا

لما بقيّ سنّ واحد في فمي. انظري سقط زوج آخر منها».

«أيها المحترم إن لم تستطع أكل الخبز قُل ذلك بهدوء، ولا تصرخ هكذا، فقد أيقظت طفلي. أنظر إليه لقد أفاق، ما العمل الآن؟».

أطلق فين في تلك اللحظة زعقة حادة أفزعت سوسولين الذي اندهش بالتأكيد لامتلاك طفل صوتاً قوياً أجشاً كصوت رجل، ثم سمعه يقول: «ماما أنا جائع أعطيني شيئاً لآكله». وضعت أوناه في يده فطيرة ليس في داخلها صينية حديد فقضمها فين بكل سهولة وشهية مما صعق سوسولين وشكر حظه في سره لعدم تمكنه من لقاء فين وقال في نفسه ما دام ابنه الذي مازال في المهد يستطيع التهام خبز كهذا فكيف سأصمد في وجهه.

«أتسمحين لي بإلقاء نظرة على طفلك؟ سأعترف لك بأن طفلاً في مهده ويستطيع تناول ذلك الخبز لشيء يستحق المشاهدة».

«بكل سرور. انهض يا صغيري واجعل هذا الرجل المحترم يعرف كم تستحق أن تكون ابن فين مكول».

نهض فين وقال لسوسولين: «هل أنت قويّ؟».

«مثل الرعد والبرق».

«هل أنت قويّ لدرجة أن تعصر الحجر الأبيض وتستخرج منه الماء؟».

قال ذلك واضعاً حجراً أبيض في يد سوسولين الذي أخذ يعصره ويعصره دون جدوى. فربما بإمكانه اقتلاع صخرة «لام فورد جلين» وهرس الصاعقة، لكن استخراج الماء من حجر أبيض كان خارج حدود قدراته. رمقه فين بنظرة احتقار بينما تابع هو العصر والشد على الحجر حتى اسود وجهه من الجهد.

أخيراً قال فين ساخراً: «أيها المخلوق البائس، أأنت عملاق أنت؟ هيا أعطني ذاك الحجر وسأريك».

أخذ فين الحجر الأبيض واستبدله من وراء ظهر سوسولين بقطعة من الجبن الطازج، الذي أعدته أوناه قبل وصول سوسولين بقليل، وحين عصرها رشح مصلها كماء صاف سال من بين أصابعه على الأرض. قال فين: «يمكنني الآن العودة لسريري، فلا وقت لدي أضيعه مع من لا يقدر على أكل الخبز الذي يأكله أبي ولا يمكنه عصر الماء من الحجر، وأما أنت أيها المسكين فمن الأفضل لك أن تغادر قبل أن يرجع أبي ويقضي عليك بدقائق».

وافقه سوسولين الرأي بعد أن رأى ما رآه. وأخذت ركبتاه تصطكان لمجرد التفكير بعودة فين وأسرع في وداع أوناه، ولكي يؤكد لها أنه منذ ذلك الحين فصاعداً لا يرغب بلقاء زوجها ولا حتى بسماع اسمه قال لها: «أعترف بأنني لست منافساً له رغم كل قوتي. سوف أعمل على تجنبه كأنه الطاعون، وسأتوارى عن هذه البلاد ما دمتُ حياً». وأثناء ذلك كان فين في السرير يضحك في سرّه مستمتعاً بالنصر الذي حققه مع أوناه على سوسولين. وردت الزوجة على العملاق قائلة: «لحسن حظك أنه لم يكن هنا، وإلا لكنت الآن لحماً لتتناهشه الغربان».

أجاب سوسولين: «أعرف هذا، لكن قبل أن أذهب أيمكنني رؤية أي نوع من الأسنان تقدر على التهام خبز الحديد ذاك؟». وأشار إلى الفطائر.

«يمكنك ذلك بكل سرور، لكن بما أنها عميقة في مؤخرة رأسه فيمكنك غرس إصبعك كلها داخل فمه».

اندهش سوسولين لوجود طقم من الأسنان المكتملة النمو في فم طفل صغير وقبل أن يتمكن من سحب إصبعه قام فين بغلق أسنانه بقوة جعلت سوسولين يقفز من الألم ثم يطير من البيت صائحاً مزمجراً. وهكذا تغلب فين على سوسولين باستخدام

العقل والحيلة فلولاهما لما كانت لديه أدنى فرصة في الفوز عليه أمام قوته التي لا تضاهى. وهكذا رأينا أيضاً أنه بقدر ما توقعنا النساء في المآزق، بقدر ما يستطعن انتشالنا من مآزق مماثلة.

الإوزات البريات
باتريك كينيدي

يُحكى أنه فيما مضى من الزمن عاش ملك وملكة حياة سعيدة معاً، ورُزقا باثني عشر صبياً، دون ابنة واحدة. ولكن الملكة كانت مثل الناس جميعاً تطمع بما لا تملكه، ولا تقّدر قيمة ما لديها. فوقفت ذات صباح شتوي تنظر من شرفة القصر إلى باحة الإصطبل المكسوة بالثلوج فرأت عجلاً مذبوحاً لتوه وبجانبه وقف غراب أسود فتنهدت قائلة: «آه لو أُرزق بابنة ناصعة البشرة كهذا الثلج، سوداء الشعر كريش هذا الغراب، متوردة الخدين كحمرة ذلك الدم، لضحيتُ بأبنائي الاثني عشر لأجلها». في تلك اللحظة ظهرت أمامها عجوز شمطاء، قالت لها: «ما أقبح أمنيتك، لكنها ستتحقق كعقوبة لك، سيكون عندك ابنة مثلما تتمنين، لكن في يوم ولادتها ستخسرين صبيانك الاثني عشر». ثم اختفت بسرعة خاطفة، بعد آخر كلمة نطقتها.

جمعت الملكة يوم ولادتها أبناءها الاثني عشر في غرفة كبيرة، مسورة من الداخل والخارج بحرس مسلحين. لكن في

الساعة التي ولدت فيها ابنتها سمع الحرس دوياً وصفيراً حاداً ثم رأوا الأولاد الاثني عشر يرتفعون محلقين واحداً بعد الآخر من النافذة، كسهام أُطلقت في الهواء باتجاه الغابة. غرق الملك في الحزن لضياع أبنائه الاثني عشر، ولو علم أن أمنية زوجته هي السبب وراء خسارتهم لغضب عليها أشد الغضب. أما الابنة المولودة حديثاً، فقد جاءت كما تمنت أمها بيضاء كالثلج، متوردة الخدين كالدم، فأطلق عليها الجميع تسمية «بياض الثلج» أو«حمرة الورد»، وأما قلبها فكان أكثر بياضاً ورقة. لكن حين كبرت وسمعت بقصة اختفاء إخوتها الاثني عشر انتابها حزن شديد، جعلها تقضي معظم وقتها وحيدة، مما زاد من ألم أمها وعذاب ضميرها، وخاصة حين كانت تسألها عنهم فتتهرب من الإجابة. وقد ضعفت أمام إلحاحها مرة فأخبرتها، فردت الفتاة: «بما أنني السبب في تحوّل أخوتي الاثني عشر إلى إوز بريّ، فعليّ الخروج للبحث عنهم، والعمل على إعادتهم إلى طبيعتهم».

في اليوم التالي حاول والداها مراقبتها ومنعها لكن من دون جدوى. انطلقت في المساء الذي يليه تمشي في الغابة المحيطة بالقصر، وسارت طويلاً حتى مساء اليوم الذي تلاه، ولم تتوقف حتى وجدت نفسها أمام بيت صغير لطيف من الخشب، مسور

بحديقة جميلة فيها أزهـار من كل الألـوان والأشكال. حين دخلت وجدت مائدة خشبية وضع عليها اثنا عشر طبقاً، بجانب كل واحد ملعقة وشوكة وسكين، توزع حولها اثنا عشر كرسياً، وكانت المائدة عامرة بالحلوى والفاكهة والشراب، والنار مشتعلة في الموقد. ورأت اثني عشر سريراً في غرفة طويلة مجاورة. وبعد مضي لحظات انفتحت البوابة ليدخل منها اثنا عشر شاباً. عندما وقعت أعينهم عليها اكتست وجوههم بالحزن وقال أكبرهم: «يا لحظك الشقيّ، بسبب فتاة مثلك أُرغمنا على مغادرة قصر والدنا والبقاء بهيئة إوزات منذ أثنتي عشر سنة، فأقسمنا قسماً قاطعاً بأن نقتل أول فتاة نصادفها. إنه لمن المؤسف قتل فتاة بريئة وجميلة مثلك، لكن لا نستطيع الإخلال بالقسم».

فردت عليهم: «لكنني أختكما الوحيدة، ولم أعلم بقصتكم إلا ليلة أمس، وقد قررت الهرب من القصر للبحث عنكم وألا أرجع قبل أن أساعدكم بكل ما استطعت كي تعودوا مثلما كنتم».

صمت الإخوة وأطرقوا مفكرين ثم صاح أكبرهم: «اللعنة على قسمنا، ما العمل الآن؟».

وعلى الفور ظهرت لهم تلك العجوز الشمطاء التي ظهرت مرة لأمهم وقالت: «أنا أخبركم. تجاهلوا قسمكم الشرير. وإن حاولتم إيذاء هذه البنت سأحوّلكم إلى أعواد حطب. لكني لا أضمر لكم الشر. إن أختكم هي وسيلتكم الوحيدة للعودة إلى طبيعتكم الأولى من جديد، وعليها أن تنسج لكم من نباتات السرخس في المستنقع اثني عشر قميصاً، على ألا تنطق أو تضحك أو تبكي مدة خمس سنوات وهو الزمن الذي سيستغرقها لإنجاز القمصان، وإن فعلت ستبقون إوزات حتى مماتكم. وخلال هذا الوقت عليكم الاهتمام بها ورعايتها». ثم اختفت الجنية تاركة الإخوة يعانقون أختهم بفرح يتخلله الحزن.

مرت ثلاث سنوات أنهت فيها الفتاة ثمانية قمصان، لم تتكلم أو تضحك أو تبكي فيها إطلاقاً. وذات صباح وهي جالسة تحيك في الحديقة، ظهر أمامها كلب صيد لطيف، أخذ يلحس جبينها وشعرها ثم اختفى، وبعد برهة رأت عند بوابة البيت أميراً شاباً وسيماً، طلب الإذن بالدخول. أومأت له برأسها فدخل. ومنذ اللحظة التي رآها فيها وقع في حبها، وبدأ يسألها عشرات الأسئلة التي لم يتلقَ أي جواب عليها، فشرع يخبرها عن نفسه ومن أين جاء. قال

لها إنه ملك وصل مع قافلة صيده منذ وقت قصير إلى الغابة المجاورة. ثم رجاها أن ترافقه لبلده وتقبل الزواج به. شعرت الفتاة بعاطفة مشبوبة تجاهه، ورغم أسفها لفراق إخوتها إلى أنها اومأت برأسها موافقة على طلب الزواج، ووضعت يدها في يده. كانت واثقة أنه لن يصعب على الجنية وإخوتها إيجادها لو رحلت معه. حملت معها الكثير من أعشاب المستنقع وكذلك القمصان الثمانية التي تكفّل مرافقو الملك بها، ثم أجلسها الملك أمامه على الحصان وانطلقا باتجاه قصره.

لم يقلق الملك شيئاً في الطريق إلاّ تخيّله لموقف زوجة أبيه حين سيواجهها بخبر زواجه، لكنه كان شاباً قوياً واثقاً من قدرته على تدبر الأمور. وهكذا بمجرد وصولهما استدعى أفضل خدمه لتجهيز عروسه وتم الاحتفال بالعرس.

طوال الوقت كانت الملكة، زوجة الأب، تراقب سعادة الزوجين ببغض وحسد، محاولة إيقاع الخلاف بينهما لكنها فشلت، فقد كانا مغرمين ببعضهما بعض بقوة. وبعد عام وُلد لهما طفل سُعدا به كثيراً واحتارت زوجة الأب كيف تبدد سعادتهما. ومرة، وبينما الأم تحضن طفلها وتهدهده

كي ينام على سريرها، بعد أن دست لها زوجة الأب مخدراً في شرابها، ثم وقفت تتلصص عليهما وتفكر بحيلة للتخلص من الطفل. وحين شاهدت من النافذة ذئباً مفترساً يحوم خلف الأسوار، سحبت الطفل بحذر من بين ذراعي أمه التي كانت قد غفت قبله بسرعة، وألقت به في فم الذئب. ثم جرحت خنصرها ومسحت الدم حول فم الأم النائمة. وقد صادفت عودة الملك من الصيد في ذلك الوقت، فهرعت لملاقاته وعلى وجهها تنهمر دموع التماسيح ثم أخذت تصفق بيديها فزعاً وهي تقوده لغرفة النوم. وبأي رعب وحزن استقبل الملك الخبر والمنظر، فقد خسر شخصين من أغلى الناس على قلبه في ساعة واحدة، وبأي ألم صامت كان على الأم أن تتحمل موت ابنها، وضياع حب زوجها، دون أن تقدر على ذرف دمعة واحدة، أو الدفاع عن نفسها بكلمة. قرر الملك التستر على ما حدث ريثما يكتشف الحقيقة وخلال ذلك طلب من زوجة أبيه أن تشيع بين الناس بأن طفله قد سقط من بين ذراعيّ أمه، والتقطه بالصدفة وحشٌ مفترس. تظاهرت زوجة الأب بأنها ستنفذ بالحرف ما طُلب منها، لكنها أخبرت الجميع سراً بما رأته هي والملك في غرفة النوم.

تابعت الملكة نسج القمصان بصمت وحزن، وأحياناً كانت تعزيها قليلاً رؤية اثنتي عشرة إوزة تحوم فوق أشجار الغابة، أو تنظر نحو شرفتها خلال طيرانها من هناك.

أوشكت السنوات الخمس على الانقضاء، وكادت هي تنهي جميع القمصان باستثناء كُم واحد منها، لم تستطع إكماله بسبب ولادتها لطفلة جميلة، قررت زوجة الأب التخلص منها بالطريقة نفسها، فاستغلت فرصة تنزّه الملك في الحديقة وقامت بإبعاد الخدم، ثم وضعت مخدراً للأم فغفت ثانية بجانب طفلتها. انتشلت زوجة الأب الطفلة من حضن أمها وكانت تفكر بإعطائها لأحد الخدم كي يقتلها لكنها لمحت ذلك الذئب يلعق شفتيه قرب السور، فرمت بالطفلة إليه، ومسحت دماً من جرح يدها فوق شفتي الأم النائمة، ثم ركضت في ردهات القصر كالمجنونة، تزأر وتبكي وتفرك يديها مستدعية كلّ من رأته في طريقها. فاحتشد الجميع في غرفة نوم الملكة ليشهدوا كيف يمكن لأم التهام طفلتها.

شعرت الأم أن الحياة ستفارقها ولم تستطع التفكير أو الصلاة فجلست جامدة كالحجر تعمل على إنجاز كُم القميص الأخير.

وأما الملك فقد فكر بإعادتها إلى حيث وجدها في الكوخ الصغير وسط الغابة، لكن زوجة أبيه وحاشيته أصروا عليه

أن يعاقبها بالموت. فقرروا حرقها في ذلك اليوم تمام الساعة الثالثة في باحة القصر. عزل الملك نفسه في غرفة بعيدة عن القصر، وكان أكثر حزناً من أي رجل في مملكته خلال تلك الساعة. حين حل وقت الإعدام دسّت الملكة القمصان تحت ذراعها وكانت تنهي آخر قُطب فيها بينما الحراس يوثقونها بقضبان الحطب. بعد آخر قطبة تركت القمصان من يدها، وسقطت من عينها دمعة واحدة وهي تشهق بارتياح ثم صرخت: «أنا بريئة، نادوا على زوجي».

توقف الجلادون عن ربطها وأرخوا الحبال من أيديهم باستثناء جلاد جلف، تابع الربط ثم أخذ يشعل النار. في تلك اللحظة حلقت في السماء اثنتا عشرة إوزة، ثم حطت على السور فقامت بياض الثلج برمي القمصان إليهم. دُهش الجميع من رؤية اثني عشر شاباً وسيماً يقفزون من السور، راكضين باتجاه الملكة المُعدة للحرق. حلّوا الحبال بسرعة، وأبعدوا أختهم، وقام أحدهم بخطف الشعلة من يد ذلك الجلاد القميء، وضربه بها ضربة لم يكن بحاجة إلى تكرارها. جاء الملك راكضاً لاستطلاع الأمر فوجد اثني عشر شاباً يعانقون زوجته ويحاولون تهدئتها، وخلال ذلك ظهرت

امرأة حسنة المظهر، تحمل على ذراعها طفلتهما الرضيعة وتقود بيدها طفلهما الأمير الصغير. ارتفع بكاء الفرح من كل مكان، وتعانق الجميع مقبلين بعضهم بعض، وحين انتبهوا أن عليهم شكر الجنية التي أحضرت الطفلين تلفّتوا حولهم باحثين عنها فلم يجدوها. وهكذا لم يحدث أن سادت سعادة مماثلة لسعادة من كان في ذلك القصر حينها. أما زوجة الأب الشريرة ومن ساعدها، فالموت تمزيقاً بحوافر الخيل كان قليلاً عليهم.

الجميلة الكسولة وخالاتها

باتريك كينيدي

يُحكى أنه كانت هناك أرملة تعيش مع ابنتها الوحيدة، الجميلة كنهار مشمس، والكسولة كخنزير. وكانت تلك الأرملة بارعة في الغزل وقد تمتعت بشهرة واسعة لمهارتها ودقّة صنعتها، وكم تمّنت لو أن ابنتها مثلها، لكن للأسف كانت البنت تصحو متأخرة، وتتناول فطورها قبل الانتهاء من صلاتها، ثم تُمضي الوقت بالتسكّع، ولا تحمل الأغراض إلا برخاوة كأنها ستحرق أصابعها، وحين تتكلّم تخرج الكلمات من فمها معلوكة كأنّ الكلام يتعبها، وبالإجمال كانت حالتها المزرية تحرق قلب أمها المسكينة. وذات صباح طفح كيل الأم من خمولها وتقاعسها فانهالت عليها بالشتائم، وحدث أن كان ابن الملك ماراً بالقرب على صهوة حصانه، فخاطبها قائلاً: «آه، يا إلهي يا إلهي، من يسمعك أيتها المرأة الطيبة يظن أنك تشتمين بنتاً بمنتهى السوء حتى تستحق منك كل هذه القسوة، ولا أعتقد أن هذه الصبية الفاتنة هي من أغضبك!».

ردت الأم بنفاق: «لا، لا يا حضرة الأمير، بالعكس، كنت أزجرها فقط لأنها ستميت نفسها من كثرة العمل، تصور جلالتك أنها تغزل ثلاثة أرطال من الكتان في اليوم، وتحولها إلى خيطان في اليوم التالي، وتنسجها قمصاناً في اليوم الثالث».

صاح الأمير: «يا للروعة، هي من سيملأ عين أمي الملكة وهي التي تعد نفسها أفضل غازلة في المملكة. أرجوك يا سيدتي ألبسي ابنتك عباءتها وقلنسوتها، ودعيها تركب خلفي. ستسر أمي بالتعرف إليها وقد تجعلها عروساً لي في أقل من أسبوع، هذا طبعاً إن قبلت بي الآنسة نفسها».

تملّكت الأم مشاعر مختلفة بين الفرح، والخوف من انكشاف كذبتها، لكنها في النهاية جهّزت ابنتها وأجلستها خلف الأمير الذي انطلق بها مع حاشيته نحو القصر، بعد أن ترك صرة كبيرة من الذهب في يدها.

لم يستطع الأمير معرفة أي نوع من الفتيات هي، أو مقدار ذكائها من إجاباتها المقتضبة على أسئلته. أما أمه الملكة فقد ذُهلت حين رأت فتاة ريفية صغيرة السن مثلها، تركب ظهر الحصان خلف ابنها، لكن حين تأملتها وانتبهت لمدى حسنها، وسمعت من ابنها عن مهارتها في الغزل تجاهلت أصلها. واستغل الأمير

الفرصة لأن يهمس في أذن الفتاة قائلاً إن وافقت على الزواج به عليها أن تكافح لنيل رضى أمه. انقضت فترة المساء وازداد تعلّق الأمير والفتاة واحدهما بالآخر، لكن قلب الفتاة كان يرتجف كلما تذكّرت أمر الغزل، وعندما حل موعد النوم اصطحبتها الملكة العجوز إلى غرفة نوم فاخرة وقالت لها قبل أن تخرج مشيرة إلى كومة من الكتان الرائع: «يُمكنك البدء غداً صباحاً في أي وقت تحبين، وأتوقع رؤية هذه الأرطال الثلاثة من الكتان خيوطاً مغزولة في الصباح التالي».

لم يغمض للفتاة المسكينة جفنٌ تلك الليلة، فقد اندفعت تبكي وتنوح ندماً لأنها لم تسمع نصيحة أمها. وعندما تُركت وحيدة في اليوم التالي اقتربت من كومة الكتان بوجل وارتباك، ورغم المغزل المصنوع من خشب الماهوغاني الجميل الفاخر، والكتان المميّز، فقد كان الخيط ينقطع في يدها باستمرار، ويكون مرة دقيقاً ناعماً كخيوط شبكة العنكبوت، ومرة ثخيناً خشناً كالحبل. وبعد معاناة وألم طويلين، دفعت كرسيها للخلف وأرخت يديها على ركبتيها واستسلمت لنوبة من البكاء الحاد. ولكن فجأة ظهرت أمامها عجوز بقدمين كبيرتين بشكل لافت، وسألتها: «ما الذي يحزنك أيتها الجميلة؟».

أجابت الفتاة: «عليّ الانتهاء من غزل هذه الكومة الكبيرة من الكتان قبل صباح الغد، بينما لن أقدر حتى على غزل ربعها».

فقالت العجوز: «إن قبلتِ حضور عجوز بقدمين كبيرتين مثلي تدعى كولياش كشمور في حفل زفافك على الأمير، أنجز لك الغزل قبل الصباح، بينما تنعمين بالنوم في سريرك».

ردّت الفتاة: «أقبل بالطبع، بكل سرور، وسأكرمك مدى الحياة».

قالت العجوز: «حسناً إذن، ابقي في غرفتك حتى موعد تناول الشاي، يمكنك حينها إخبار الملكة أن غزلها سيكون جاهزاً في الصباح الباكر». وبالفعل حين دخلت الملكة صباحاً، رأت الأرطال الثلاثة قد تحولت كلها إلى خيوط من أنعم وأدقّ ما رأته في حياتها فصاحت بدهشة: «يا لكِ من فتاة بارعة، سأهديك نولي الخاص، لكن استريحي اليوم وغداً ستنسجين كل هذه الخيوط ومن يعلم ما سيحدث بعدها».

ازداد خوف الفتاة في هذه المرة، وتضاعف خوفها من خسارة الأمير فيما لو أخفقت. لم تكن تعرف حتى كيف

توضب السّداة[1] أو كيف تحرّك المكوك[2] وكانت في أشد القلق والاضطراب عندما ظهرت لها فجأة عجوز أخرى، صغيرة الحجم ولا يتجاوز طولها أكثر من ارتفاع خصر الفتاة عن الأرض. أخبرتها أن اسمها «كولياش كرومانمور» فعقدت الفتاة معها الصفقة نفسها التي عقدتها في السابق مع «كولياش كشمور». وكم كانت سعادة الملكة غامرة، حين رأت في الصباح نسيجاً أبيض ناعماً كأجمل ما يمكن لعين أن تراه، وقالت للفتاة: «يا لك من غالية، تسلي اليوم كيفما شئتِ مع السيدات في القصر، لكن إن استطعت خياطة كل هذا القماش قمصاناً لابني قبل صباح الغد فسأزوجك له في الحال».

وهكذا صارت الفتاة المسكينة على بعد شعرة من هدفها وفي الوقت نفسه أبعد ما تكون عنه، وجلست بكل صبر مع مقصها وإبرتها وخيوطها تنتظر حدوث مفاجأة جديدة، وحين تجاوز الوقت الدقيقة الواحدة بعد منتصف الليل قفزت فرحاً لرؤية عجوز ثالثة تظهر أمامها. هذه المرّة كان لها أنف كبير أحمر وهو سبب تسميتها «بشرون مور روا». أعانت العجوز الفتاة على مهمتها مثلما حدث في المرتين السابقتين. وفي الصباح

(1) السداة: ما مد من نسيج الخيوط طولاً(للتأسيس من أجل الغزل) (م).
(2) المكوك في المغزل عبارة عن خشبة مفلطحة نوعاً ما، تلف عليها الخيطان ويتم إدخالها وإخراجها حول خيوط النسيج الأخرى لتقوم بعمل يشبه عمل الإبرة في التطريز (م).

التالي وجدت الملكة أثناء زيارتها المعتادة لغرفة الفتاة دزينة من القمصان الجذابة مبسوطة على الطاولة.

بعد ذلك الصباح صار الحديث عن الزفاف على كل لسان، ولا حاجة إلى القول إنه كان مذهلاً، وقد دعيت لحضوره أم العروس المسكينة. وعلى مأدبة العشاء لم تتوقف الملكة أم العريس عن مديح العروس ومهارتها ووصف تلك القمصان البديعة. ولم تكتفِ بذلك بل بدأت تخطط لما ستفعلانه معاً بعد انقضاء شهر العسل. طلبت من الجميع التخيّل كم ستكون سعادتها مع كنتها عظيمة حين ستصرفان الوقت في الغزل والنسج وتفصيل الملابس وخياطتها هكذا إلى ما لا نهاية.

وبالطبع لم يرضِ كلام كهذا العريس، وبالتأكيد كانت العروس أقل رضى، وفي اللحظة التي أخذ العريس يخطط فيها للاعتراض على كلام أمه، دخل الحاجب متجهاً إلى رأس المائدة، حيث تجلس العروس، وقال لها: «خالتك السيدة كولياش كوشمور تطلب الإذن بالدخول». احمرّت العروس خجلاً، وتمنت لو تنشق الأرض وتبتلعها، لكن الأمير تقدم لنجدتها قائلاً: «قل للسيدة كوشمور أن أقرباء زوجتي مرحب بهم في أي زمان ومكان». فدخلت العجوز

ذات القدمين الكبيرتين وجلست بالقرب من الأمير، الشيء الذي لم ينل إعجاب الملكة العجوز كثيراً، فتبادلت معها بعض الكلمات ثم سألتها بفجاجة: «يا عزيزتي ما السبب وراء كبر قدميك لهذه الدرجة؟».

ردت العجوز: «آه يا جلالة الملكة، الوقوف طوال عمري على دولاب المغزل جعلهما كذلك».

فقال العريس على الفور: «أعدكِ يا زوجتي الغالية بأنني لن أسمح لك بالوقوف ساعة واحدة على دولاب المغزل». وهنا دخل الحاجب ثانية واتجه للعروس قائلاً: «خالتك السيدة كولياش كرومانمور ترغب بالدخول إن لم يكن عند أحد من السادة أو حضرتك أي مانع». قالت العروس مغمغمة في سرها: «يا للمصيبة». لكن العريس أمر بالترحيب بها فدخلت وجلست، ثم رفعت كأسها في صحة العروسين وفجاةً سألتها الملكة العجوز: «أيمكنني أن أسألك يا عزيزتي ما الذي أحنى ظهرك هكذا فاقترب وجهك من قدميك لهذه الدرجة؟».

أجابت العجوز ذات الظهر المحدودب: «ذلك يا جلالة الملكة بسبب الجلوس طوال اليوم أمام النول». فصاح

العريس: «أُقسم بحياتي أن زوجتي لن تجلس أمام النول ساعة واحدة». عاد الحاجب للمرة الثالثة قائلاً: «خالتك السيدة كولياش شرون مور رويا تسأل إن كنتِ تسمحين لها يا سيدتي بحضور العشاء؟». امتقع وجه العروس أكثر من قبل، لكن العريس ردّ مرحباً: «أخبر السيدة شرون مور رويا بأننا نتشرف بقدومها». دخلت العجوز واتجهت مباشرة إلى صدر المائدة وجلست بكل احترام ووقار، أما المدعوون فقد وضعوا كؤوسهم أمام أنوفهم كي لا تلحظ ابتساماتهم لرؤية أنفها الأحمر الكبير. لم تتمالك الملكة نفسها فسألتها أمام الجميع قائلة: «أخبرينا يا عزيزتي لِمَ أنفك كبير وأحمر لهذه الدرجة؟». ردّت العجوز: «آه جلالتك لو تعرفين، أمضيتُ كل عمري في الخياطة، الإبرة في يدي ورأسي محني فوق القُطب وكل الدم في جسمي كان يجري إلى أنفي فكبر واحمر هكذا». قال العريس للعروس: «يا حبيبتي إن رأيتك مرة تُمسكين بالإبرة لابتعدتُ عنكِ مئات الأميال».

وهكذا أيتها البنات وأيها الأولاد، رغم أن هذه قصة مسلية، لكنها ليست درساً جيداً في الأخلاق. وإن حاول أحدكم تقليد تلك الفتاة في كسلها فلن تنتهي الأمور

لصحالكم مثلما حدث معها. فهي فتاة فاتنة الجمال وأنتم جمالكم عادي، ولديها ثلاث جنيات لمساعدتها، بينما لا وجود للجن في أيامنا هذه، ولا أمراء أو سادة للركوب على الخيل خلفهم، بعد عثورهم علينا متلبسين بتهمة الكسل أو كثرة العمل، وفوق كل ذلك فمن الممكن أن الأمير وزوجته عاشا بتعاسة، لأن كسل الزوجة لم يعنها في حياتهما العملية، أو حين تقدما في السن.

الأميرة المغرورة
باتريك كينيدي

يُحكى أنه كان هناك ملك عظيم له ابنة آية في الجمال لكنها كانت متكبرة كشيطان. لم يبقَ ملك أو أمير لم يتقدم لخطبتها إلا رفضته. وحين تعب والدها من عجرفتها قرر دعوة جميع الملوك والأمراء والنبلاء الذين يعرفهم لمنحها فرصة أخيرة للاختيار. وفي صباح اليوم التالي لوصولهم إلى القصر، اصطفوا جميعاً، في البهو، بعد الفطور، ومشت الأميرة أمامهم تتفحصهم.

قالت للسمين: «لن أتزوجك يا برميل الجعة».

وقالت للطويل والنحيل: «لن أتزوجك يا عود القصب».

وقالت لصاحب الوجه شديد البياض: «لن أتزوجك يا شحوب الموت».

وقالت لذي الخدين المتوردين: «لن أتزوجك يا عرف الديك».

لكنها توقفت مدة أطول أمام آخرهم، والذي كان شاباً وسيماً، لا يشكو من أي عيب واضح، باستثناء خصلة صغيرة تلتف كخاتم من الشعر البني تحت ذقنه، فمدحته باختصار، ثم تابعت طريقها قائلة: «ومع هذا فلن أتزوجك يا سبَلَة[1]».

وهكذا ذهب جهد أبيها أدراج الرياح، فاستشاط غضباً وقال لها: «سأزوّجك لأول عابر سبيل حتى لو كان متسولاً، أو مغنّياً جوّالاً، عقاباً لكِ على غرورك وعجرفتك». وحدث أن وصل في الصباح التالي شاب مغطى بالأسمال وبلحية طويلة شعثاء، وقف تحت نافذة الردهة وأخذ يغني. عندما انتهت الأغنية فتح باب البهو ودُعي للدخول ثم أمر الملك باستدعاء القس الذي حضر في الحال وقام بتزويج الأميرة لذلك المتسول. صاحت الأميرة وتخبّطت وبكت، لكن والدها لم يكترث وقال للعريس: «خذ هذه الجنيهات الخمسة واحمل زوجتك معك وغادر في الحال، ولا تدعني أر وجهيكما بعد الآن»

انطلق العريس مع الأميرة الغاضبة، التي لم يهدّئ من روعها إلا صوت زوجها الرقيق وأسلوبه العذب اللطيف. سألته عندما مرّا في إحدى الغابات: «لمن هذه الغابة؟».

(1) السبَلة: الجزء من اللحية النامي على جانبي الوجه أو عدة شعرات أسفل الذقن (م).

أجاب: «إنها غابة الملك الذي دعوته أمس بالسبّلة»، ثم قدم لها الإجابة عينها حين سألته عن السهول وحقول الذرة وأخيراً عن مدينة رائعة مرّا فيها فقالت في نفسها: «آه، لولا حماقتي لكان ذلك الملك زوجي الآن». وفي النهاية وصلا إلى كوخ فقير، فسألت المسكينة: «لِمَ نحن هنا؟»، فأجابها: «هذا بيتي، والآن صار بيتك أيضاً». فأخذت تنوح وتبكي، لكن الجوع والتعب أرغماها على الدخول دون اعتراض.

ويا لهول ما رأت. لم يكن هناك أية طاولة أو نار مشتعلة، فكان عليها مساعدة زوجها لتحضير الحطب وإشعال الموقد وطهو العشاء ثم شطف الصحون. وفي اليوم التالي جعلها ترتدي ثوباً من الخيش وتحمل منديلاً وتقوم بتنظيف وترتيب المكان كله. وحين فرغت من إنجاز جميع الأعمال المنزلية، أحضر لها قصباً وعلّمها كيف تجدل منه سلة، لكن حواف القصب الحادة أدمت أناملها الناعمة، فشرعت تبكي. وعندما طلب منها رفو ملابسه العتيقة انغرزت الإبرة في إصبعها فبكت مرة أخرى. لم يحتمل رؤية دموعها فجلب سلة مليئة بالأدوات الفخارية وأرسلها للسوق كي تبيعها. كان هذا أصعب امتحان لها، لكن حسن حظها وجمالها مكناها من النجاح. فلم يكد

ينتصف النهار حتى نفدت جميع صحونها. والشيء الوحيد الذي حدث وذكّرها بصلفها القديم هو صفعة سددتها لأحد الشبان المتشردين، حين عرض عليها مشاركته الشراب. سُرّ زوجها لنتيجة ذلك اليوم، فأرسلها في الصباح التالي مع سلة أخرى. لكن الحظ لم يحالفها كما في المرة السابقة فلم تكد تصل السوق حتى اعترض طريقها حصانٌ يركبه صيّاد مخمور، فاصطدم بها وأوقعها أرضاً هي وسلتها، فانكسر كل الفخار الذي فيها، وعادت إلى الكوخ باكية. قال لها الزوج مؤنباً: «لا يبدو أنك ستنجحين في التجارة. سأحصل لك على وظيفة خادمة في مطبخ القصر، فالطبّاخ من معارفي». وهكذا كان على المسكينة أن تضحّي بكبريائها مرةً أخرى. لكن عملها الجديد أبقاها مشغولة كل الوقت، ولم يعكّر سير الأمور إلا ملاحقات الخادم والبوّاب لها للحصول على قُبلة، ولم يردعهما سوى زجر الطباخ لهما، بعد سماع صراخها. وهكذا صارت ترجع البيت لزوجها كل ليلة، وفي جيوبها تحشو بعض المؤن التي تسرقها من المطبخ. وفي الأسبوع الثاني لخدمتها أقيم احتفال كبير بمناسبة زواج الملك من عروس لا تزال مجهولة الهوية.

في مساء ذلك اليوم حين أنهت عملها، ملأ الطباخ جيوبها باللحم البارد والحلويات وقبل ذهابها قالت له: «دعنا نسترق النظر لما يحدث في قاعة الاحتفال». فوقفا وراء الباب ليلقيا نظرة، وإذ بالملك نفسه يقترب منهما، ولدهشتها كان هو الملك الوسيم نفسه الذي دعته بالسبّلة. قال غامزاً الطباخ: «مساعدتك الفاتنة عليها أن تدفع ثمن تلصصها فتشاركني هذه الرقصة». ومن دون انتظار موافقتها سحبها إلى داخل القاعة، وأخذا يرقصان على أنغام الموسيقى التي صدحت من جديد، لكن لم تكد تخطو خطوتين حتى بدأت قطع اللحم والحلوى تتساقط من جيوبها، فشهق الجميع مستغربين، بينما أجهشت هي بالبكاء ثم فرّت راكضةً نحو باب المطبخ.

لكن الملك لحق بها وقال لها حين ابتعدا عن الجميع: «ألم تعرفيني يا عزيزتي، أنا الملك سبّلة، وزوجك المغنّي الجوّال، والصيّاد السكران، في الوقت ذاته. والدك صديقي، وكل ما حدث كان خطةً منه لترويض كبرياءك». حارت الأميرة بماذا تحس، أبالخجل والخوف، أم بالسعادة، مع أن الحب كان أكثر العواطف طغياناً في تلك اللحظة، فألقت رأسها على صدر

زوجها وبكت كالأطفال. وبعد وقت قصير جهزت بثياب العرس الفاخرة وقدِم والدها وأمها للمشاركة في الاحتفال، ولم يفهم الحاضرون ما حدث بالضبط بين الملك وتلك الفتاة الجميلة، لكن منظره حين عاد مع عروسه المتألقة أنساهم كل شيء، وانغمسوا جميعاً في أروع زفاف لن يُقدّر لأمثالنا حضوره بأيّ حال من الأحوال.

سحر النبيل جيرالد[1]
باتريك كينيدي

زعموا أنه فيما مضى من الزمن كان هناك رجلٌ عظيمٌ من عائلة فيتزجيرالد اسمه جيرالد، لكن تقدير الآيرلنديين المعروف لتلك العائلة جعلهم يطلقون عليه لقب «جيرالد أيارلا» الذي يعني «جيرالد النبيل». وأقام جيرالد هذا في قلعةٍ فخمةٍ في «موليماست»[2]، وكان دائم الدافاع عن حقوق الآيرلنديين ضد أي حيف يلحقهم من الإنجليز. لكنه تميّز إضافة، لكونه فارساً مقداماً، ومحارباً ماهراً، بقدراته في فن السحر، فقد كان باستطاعته تحويل نفسه لأي هيئة يريدها. وقد توسلت إليه زوجته – التي كانت على علم بقدراته تلك – مراراً أن يطلعها على بعض أسراره في هذا المجال لكنه لم يستجب لها. وقد رغبت بشكل خاص أن تراه يتحوّل أمامها إلى هيئة غريبة ما، لكنه كان يتذرع بعشرات الأعذار للتملص منها. وأمام طبيعتها الأنثوية الملحاحة التي لا تقبل الاستسلام، اضطر لإخبارها بأنه سيريها إحدى

(1) Gearoidh Iarla (Earl Gerald) النبيل جيرالد. من أساطير وحكايات السلتيين في آيرلندا (المؤلف).

(2) Mullaghmast موليماست اسم حصن شهير في مقاطعة كيلدار في آيرلندا (م).

تحولاته شرط ألاّ تبدي خوفاً، وإلاّ سيكون مصير زوجها الفناء، وستحل لعنة بسلالته لن تزول إلا بمرور عدة أجيال. وافقت بكل حماس وجرأة، ورجته أن يختبرها ليرى أي بطلة هي.

وبالفعل في إحدى أمسيات الصيف الهادئة، وبينما كانا جالسين معاً، أشاح بوجهه عنها وغمغم بعدة كلمات وبغمضة عين اختفى تماماً ليظهر عوضاً عنه في الغرفة حسّون صغير. ورغم الشجاعة التي كانت تظنها الزوجة في نفسها إلا أنها اضطربت قليلاً، لكنها تمالكت نفسها خاصةً بعد أن حطّ الحسون على كتفيها وهز جناحيه واضعاً منقاره على شفتيها، ثم أخذ يغرّد بصوت لم تسمع مثل عذوبته من قبل. بعدها حلّق ولفّ وسط الغرفة عدّة مرّات، ثم لعب معها «الغميضة» وانطلق إلى الحديقة ثم رجع ثانية نحوها، واستلقى في حضنها كأنه نائم، ثم قفز مرة أخرى، وهكذا حتى أحسا بالاكتفاء من المرح والمتعة فرفرف بجناحيه محلقاً للمرة الأخيرة قبل أن يرجع لهيئته الطبيعة، لكنه ما كاد يبتعد قليلاً حتى عاد باتجاه صدر زوجته سريعاً، قد بدا أن صقراً كاسراً كان يلاحقه. أطلقت الزوجة زعقة حادة، رغم عدم حاجتها لذلك لأن الصقر كان قد هبط كسهم ضارباً الطاولة بجسده ضربة قوية قضت عليه. حين استدارت الزوجة للمكان الذي رأت فيه الحسون آخر مرة لم تجده.

وتتالت الأعوام دون أن تقع عينها لا على جيرالد النبيل، ولا على الحسون. ومن حينها يقال إن جيرالد النبيل صار يمر في مضمار «كورا» في مقاطعة «كيلدار»[1]، مرة كل سبع سنوات، ممتطياً صهوة جواده الأصيل، بحدواته الفضية التي كانت سماكتها يوم اختفائه نصف بوصة، وحين سترِق من كثرة الركض وتصبح بسماكة أذن القطة، سيرجع إلى حياته الطبيعية، وسيخوض معركة مهمة ضد الإنجليز، وستشهد آيرلندا سنتين من الازدهار في عهده كملك عليها.

وأما في الأيام العادية الأخرى فيقال إن الوقت يمر على جيرالد النبيل وهو مستغرق في النوم مع فرسانه فوق طاولة مستطيلة في كهف طويل تحت حصن «مولامست». يترأس هو الطاولة، بينما يغفو فرسانه عن جانبيها ملقين برؤوسهم فوقها بينما أجسادهم جالسة بكامل عتادها وسلاحها، وخلفهم يقف حصان كل واحد منهم ملجوماً ومسرجاً. وحين سيأتي يوم ويولد للطحّان طفل بستة أصابع في كل يد، ويُسمع صوت نفخه في البوق، سيستيقظ الفرسان لامتطاء جيادهم التي ستصهل ناهبة الأرض بكل قوتها، وهي تعدو بهم نحو المعركة. وفي إحدى تلك

---

(1) Curragh of Kildare مضمار لسباق الخيل في مقاطعة كيلدار في آيرلندا اشتهر فيما مضى كأهم مكانٍ لسباق خيل النبلاء (م).

الليالي التي لا تحدث إلا كل سبع سنوات، وبينما كان جيرالد النبيل يعدو في مضمار «كورا» تصادف مرور تاجر خيول، وكان منهكاً وثملاً بشدة، وحين لمح الكهف المضاء دخله. لكن حين صار في وسطه ورأى الفرسان النائمين بدروعهم، أفاق من ثمالته من شدة الفزع، وأسقطت يداه المرتجفتان لجام حصانه على البلاط مما أصدر صوتاً قوياً، تردد صداه في الكهف الطويل مما جعل أحد الفرسان القريبين منه يرفع رأسه عن الطاولة قليلاً، ليسأل بصوت مبحوح قائلاً: «هل حان الوقت؟» ووجد التاجر، رغم فزعه، الفطنة ليجيبه: «لا لم يحن بعد، لكنه سيحين عما قريب». فسقطت خوذة الفارس الثقيلة ثانية على الطاولة. وأما التاجر فقد هرب بأقصى سرعته، ومن وقتها لم أسمع بأحد غيره، حظي بفرصة مماثلة لرؤية جيرالد النبيل.

مونـاشـار ومـانـاشـار
ترجمها دوجلاس هايد حرفياً عن الآيرلندية

يُحكى أنه كان هناك شخصان يدعيان موناشار وماناشار، خرجا مرة، لجمع التوت البريّ. وكلما جمع موناشار قليلاً من حبات التوت، يأتي ماناشار ويلتهمها كلها. فقال موناشار: «سأبحث عن غصن قوي، أصنع منه مشنقة، أعلّق ماناشار عليها، لأنه أكل كل التوت».

وحين جاء إلى الغصن، قال له هذا: «السلام عليك، إلى أين تمضي؟».

«وعليك السلام، أمضي بحثاً عن غصن لأشنق عليه ماناشار الذي أكل كل التوت».

ردّ الغصن: «لن تأخذني حتى تحضر فأساً لتقطعني».

عثر موناشار على الفأس، التي قالت له: «السلام عليك إلى أين تمضي».

«وعليك السلام، أمضي بحثاً عن فأس أقطع بها الغصن، الذي سأشنق عليه ماناشار الذي أكل كل التوت». فقالت الفأس: «لن تأخذني حتى تُحضر حجراً تسنني به».

وجد موناشار حجر السن، الذي قال له: «السلام عليك إلى أين تمضي؟».

«وعليك السلام، أمضي بحثاً عن حجر يسنّ الفأس، التي ستقطع الغصن، الذي سأشنق عليه ماناشار، الذي أكل كل التوت». فقال حجر السن: «لن تأخذني حتى تجلب ماء ليرطّبني».

وصل موناشار إلى الماء، الذي قال له: «السلام عليك إلى أين تمضي؟».

«وعليك السلام، أمضي بحثاً عن ماء يرطب حجر السنّ، الذي سيسنّ الفأس، التي ستقطع الغصن، الذي سأشنق عليه ماناشار، الذي أكل كل التوت».

فقال الماء: «لن تأخذني حتى تأتي بغزال يسبح بي ويحملني».

ذهب موناشار إلى الغزال، الذي قال له: «السلام عليك، إلى أين تمضي؟».

«وعليك السلام، أمضي بحثاً عن غزال يسبح بالماء الذي سيرطّب حجر السنّ، الذي سيسنّ الفأس، التي ستقطع الغصن، الذي سأشنق عليه ماناشار، الذي أكل كل التوت». فقال له الغزال: «لن تأخذني حتى تأتي بكلب صيد يصطادني».

عثر موناشار على كلب صيد، قال له: «السلام عليك إلى أين تمضي؟».

«وعليك السلام أمضي بحثاً عن كلب صيد ليصطاد الغزال، الذي سيسبح بالماء، الذي سيرطّب حجر السنّ، الذي سيسنّ الفأس، التي ستقطع الغصن، الذي سأشنق عليه ماناشار، الذي أكل كل التوت».

فقال له كلب الصيد: «لن تأخذني حتى تحضر قليلاً من الزبدة لتدهن بها مخالبي». حصل موناشار على الزبدة، التي قالت له: «السلام عليك، إلى أين تمضي؟».

«وعليك السلام، أمضي بحثاً عن زبدة أدهن بها مخالب كلب الصيد، الذي سيصطاد الغزال، الذي سيسبح بالماء، الذي

سيرطب حجر السنّ، الذي سيسنّ الفأس، التي ستقطع الغصن، الذي سأشنق عليه ماناشار، الذي أكل كل التوت».

فقالت له الزبدة: «لن تأخذني حتى تأتي بقطة لتكشطني».

وجد موناشار القطة التي قالت له: «السلام عليك، إلى أين تمضي؟».

«وعليكِ السلام، أمضي بحثاً عن القطة، التي ستكشط الزبدة، التي ستدهن مخالب كلب الصيد، الذي سيصطاد الغزال، الذي سيسبح بالماء، الذي سيرطب حجر السنّ، الذي سيسنّ الفأس، التي ستقطع الغصن، الذي سأشنق عليه ماناشار، الذي أكل كل التوت». فقالت له القطة: «لن تأخذني حتى تحضر لي حليباً».

جاء موناشار إلى البقرة، التي قالت له: «السلام عليك، إلى أين تمضي؟».

«وعليكِ السلام، أمضي بحثاً عن بقرة تعطيني حليباً أعطيه للقطة، التي ستكشط الزبدة، التي ستدهن مخالب كلب الصيد، الذي سيصطاد الغزال، الذي سيسبح بالماء، الذي سيرطّب حجر السنّ، الذي سيسنّ الفأس، التي ستقطع الغصن، الذي سأشنق عليه ماناشار، الذي أكل كل التوت».

فقالت البقرة: «لن تأخذ حليبي حتى تأتيني بحزمة قش من أولئك الحصّادين هناك». ذهب موناشار إلى الحصادين، الذين قالوا له: «السلام عليك، إلى أين تمضي؟».

«وعليكم السلام، أمضي بحثاً عن حزمة قش آخذها منكم لأطعمها للبقرة، التي ستعطيني الحليب، الذي ستشربه القطة، التي ستكشط الزبدة، التي ستدهن مخالب كلب الصيد، الذي سيصطاد الغزال، الذي سيسبح بالماء، الذي سيطرّي حجر السنّ، الذي سيسنّ الفأس، التي ستقطع الغصن، الذي سأشنق عليه ماناشار، الذي أكل كل التوت». فقال الحصادون: «لن تأخذ قشّنا حتى تُحضر لنا طحيناً، يكفي لصنع فطيرة، من ذاك الطحّان هناك».

ذهب موناشار إلى الطحان، الذي قال له: «السلام عليك، إلى أين تمضي؟».

«وعليك السلام، أمضي بحثاً عن طحين يكفي لفطيرة، آخذها للحصادين، الذين سيعطون القش، الذي ستأكله البقرة، التي ستعطي الحليب، الذي ستشربه القطة، التي ستكشط الزبدة، التي ستدهن مخالب كلب الصيد، الذي سيصطاد الغزال، الذي سيسبح بالماء، الذي سيطرّي حجر السنّ، الذي سيسنّ الفأس، التي ستقطع الغصن، الذي سأشنق عليه ماناشار، الذي أكل كل التوت».

فقال الطحّان: «لن تأخذ مني طحيناً يكفي لصنع فطيرة، ما لم تملأ لي ذلك المنخل من ماء النهر القريب».

حمل موناشار المنخل في يده وذهب إلى النهر. وكلما انحنى ليغرف به كان الماء يرشح فوراً من ثقوبه بمجرد انتشاله. ولو أن موناشار ظل يكرّر ذلك من وقتها إلى يومنا هذا لما امتلأ منخله بالماء قطّ.

لكن غراباً حام فوق رأسه وقال: «طين، طين». فرد موناشار: «شكراً للنصيحة».

أخذ قليلاً من طين ضفة النهر، ووضعه في كعب المنخل حتى أغلق جميع ثقوبه وصار بمقدوره حمل الماء للطحان، الذي أعطاه طحيناً يكفي لصنع فطيرة، قدمه للحصادين، الذين أعطوه حزمة قش، أعطاها للبقرة، التي أعطته حليباً شربته القطة وقامت بكشط الزبدة، التي دهن بها مخالب كلب الصيد، الذي اصطاد له الغزال، الذي سبح بالماء، الذي رطّب حجر السنّ، الذي سنّ به الفأس، التي قطع بها الغصن. وحين همّ بشنق ماناشار وجده قد أصبح بعيداً جداً عنه.

دونالد وجاراه
(من الحكايات الآيرلندية[1])

هودن، ودودن ودونالد أونيري، كانوا جيراناً في بارونية «بالينكونلج»[2]. وعند كل منهم ثور يستخدمه في حراثة أرضه، وبسبب شعور هودن ودودن الدائم بالغيرة من نجاح دونالد، فقد قررا مرة قتل ثوره، حتى تتأخّر أعماله في الحقل، فيضطر إلى بيع أرضه، التي يطمعان في استملاكها.

وحين وجد دونالد ثوره مقتولاً، سلخه على الفور، وحمل جلده على كتفيه واتجه به لأقرب بلدة كي يبيعه. وفي الطريق تبعه غراب، صار ينقر جلد الثور ويهذر مثرثراً طوال الوقت، فقد علّمه أحدهم نطق بعض الكلمات، فأمسك به دونالد ودسه تحت عباءته، وبعد بيع الجلد دخل حانة ليشرب، وحين تبع النادلة إلى حيث براميل الشراب، قام بعصر الغراب بيده فأصدر أصواتاً تشبه التحدث بلغة أجنبية مما أدهش النادلة فسألت دونالد: «ما هذا الذي أسمعه، أعتقد أنه كلام لكنني لم أفهمه».

(1) من كتاب للفتيان ذكره «ثاكري» في كتابه المخطوطة الآيرلندية (المؤلف).
(2) البارونيّة: أصغر من المقاطعة وأقل أهمية، تتبع لأحد النبلاء في الغالب ويلقب بالبارون(م).

فرد دونالد: «هذا طير أحمله معي أينما ذهبتُ، لأنه يخبرني بكل شيء لا أستطيع معرفته بنفسي».

فقالت النادلة: «وبماذا أخبرك الآن؟».

ردّ دونالد: «أخبرني أنك تخبئين خمراً أفضل بكثير مما تعطينني».

سألته وهي تتجه إلى برميل خمر من نوع أفضل إن كان يقبل ببيعه، فأجابها: «أقبل إن دُفع لي مقابله سعر جيد».

قالت النادلة: «سأملأ قبعتك بالمال إن تركته لي».

سُرّ دونالد بحظّه الحسن وعاد إلى بيته راضياً سعيداً. وبعد وقت قصير رأى هودن ودودن فبادرهما إلى القول وهو يريهما نقوده الفضية: «لقد ظننتما يا سادة أنكما أسأتما لي بقتل ثوري، لكنكما في الحقيقة أسديتما لي معروفاً. انظرا ما حصلتُ عليه ثمناً لجلده. لن تصدقا كم هي مطلوبة جلود الثيران هذه الأيام».

في تلك الليلة قام هودن ودودن بقتل ثوريهما وانطلقا صباحاً نحو البلدة لبيع جلديهما. وبعد أن دارا على جميع المتاجر، لم يحصلا إلا على ثمن زهيد اضطرا لقبوله، وعادا إلى بيتيهما

غاضبين، وقد أقسما على الانتقام من المسكين دونالد الذي تنصّت عليهما، وتوقّع أن يقتلاه أو يسرقاه في أثناء نومه، فوضع أمه العجوز في سريره ونام في غرفة نومها الواقعة في الجانب الآخر من البيت. عندما جاء هودن ودودن ظنّا أن العجوز هي دونالد فخنقاها، وفي تلك اللحظة افتعل دونالد ضجيجاً أخافهما وأرغمهما على الهرب قبل التمكن من سرقة النقود مما أحزنهما كثيراً.

في الصباح حمل دونالد أمه على ظهره ومضى بها إلى البلدة. توقف عند بئر قرب نُزل فأوقف أمه مستندة إلى عكازتها، وجعلها تبدو كمن ينحني ليغرف الماء، ثم دخل النُزل ليشرب بعض الخمر وهناك قال لسيدة تقف إلى جواره: «أتمنى لو تذهبي وتحضري أمي إلى هنا، فهي هناك تشرب من ذلك البئر، لكن سمعها ثقيل، فإن لم تردّ عليكِ اقتربي منها وهزّيها من كتفها وقولي لها إنني بحاجة إليها».

نادت السيدة على العجوز مرات عدة، لكنها لم تلتفت، فاقتربت منها وهزّتها فشكّت العجوز على رأسها في البئر. هرعت السيدة بفزع نحو النُزل، وهي تنوح وتصيح معتقدة أنها السبب في غرق العجوز.

ركض دونالد إلى البئر وانتشل جثة أمه، وهو يدّعي الحزن والتفجع طوال الوقت. وبعد دفن الأم، جمع أهل البلدة مبلغاً محترماً من المال لتعويضه عن خسارته لكون الحادث قد وقع في ديارهم. وهكذا رجع إلى بيته هذه المرة بمبلغ أكبر بكثير من ثمن الغراب، وحالما التقى هودن ودودن أراهما النقود قائلاً: «لقد قتلتما أمي لا أنا ليلة أمس، انظرا ما حصلتُ عليه ثمناً لجثتها».

في تلك الليلة أقدم كلّ من هودن ودودن على قتل أمه، وفي الصباح حملا الجثتين، وانطلقا نحو البلدة صائحين: «من يشتري نساء ميتات، من يشتري نساء ميتات». سخر الناس منهما، ثم قام الصبية بطردهما رمياً بالحجارة. عادا وأقسما على الانتقام من جارهما الغشاش بعد دفن العجوزين.

جاءا إلى بيته فوجداه يتناول فطوره، فلاحقاه حتى قبضا عليه وحشراه في كيس وانطلقا إلى النهر كي يرمياه هناك، وفي الطريق لمحا أرنباً برياً بثلاث قوائم فخالاه صيداً سهلاً، فرميا الكيس على الأرض وطاردا الأرنب. وفي تلك الأثناء مر قرب الكيس تاجر ماشية، فسمع صوت دونالد يغني في داخله. فسأله لماذا يغني بمرح بينما هو مقيد في الكيس، فأجابه: «آه ذلك لأنني في طريقي نحو الجنّة، وخلال وقت قصير سأتخلّص من كل أعبائي وهمومي».

فقال التاجر: «آه.. يا سلام، وماذا تطلب مقابل أن تعطيني مكانك في هذا الكيس؟». أجاب دونالد: «في الحقيقة لا أدري بالضبط، لكنني لن أرضى إلا بمبلغ مُعتبر».

رد التاجر: «ليس لديّ مال، لكن معي عشرون رأس من البقر، خُذها مقابل أن أكون مكانك في هذا الكيس».

فقال دونالد: «لا أكترث لوجودي في هذا الكيس كثيراً وسأقبل بعرضك».

حرره التاجر ودخل بنفسه في الكيس، ثم قاد دونالد قطيع الماشية إلى مرعاه وتركه هناك. وأما هودن ودودن فبعد أن اصطادا الأرنب رجعا وحملا الكيس وألقيا به في النهر مثلما خططا من قبل. ثم توجها نحو مزرعة دونالد كي يضعا يديهما على كل ما فيها، لكنهما صعقا حين وجداه في بيته سليماً معافى، مع قطيع كبير من الأبقار يسرح في مرعاه، مع العلم أنه لم يكن يملك أي ماشية من قبل. فسألاه: «ما تفسير هذا يا دونالد؟ لقد ظنناك غرقت، وها أنت هنا أمامنا مع كل هذا الخير!».

قال دونالد: «آه لو كان معي من يساعدني عندما رميتم بي في النهر، لأحضرتُ أكثر بكثير، أتعلمون كم رأيت منها هناك

في قعر النهر؟ قطعان على مد البصر من الماشية، وأكداس مكدّسة من الذهب دون صاحب لها. إن أحببتم أدلكم على مكانها لتحضروا المئات منها».

أقسمَ كلاهما على أن يجعلاه صديقهما المفضّل، وبناء على رغبتهما قادهما دونالد إلى أعمق منطقة من النهر، والتقط حجراً ثم رماه في الماء قائلاً: «المكان هو هناك، حيث رأيتما الحجر يسقط بالضبط، اذهبا واحداً بعد الآخر، وإن احتجتما إلى المساعدة ناديا عليّ». قفز هودن في النهر وسحبه الماء إلى القاع بسرعة، ثم ظهر برأسه ثانيةً مصدراً بقبقة مثل جميع الغرقى، محاولاً أن يتكلم دون أن يستطيع. سأل دودن: «وما الذي يقوله الآن؟».

أجاب دونالد: «إنه يستنجد، ألا تسمعه، ابتعد عن طريقي، فأنا أعرف كيف أقوم بهذا أفضل منكما أنتما الاثنان». وركض إلى الخلف استعداداً للقفز، لكن طمع دودن جعله يسبقه ويقفز في الماء، ليغرق مع هودن. وتلك كانت نهاية هودن ودودن.

غراب الزيتون[1]

كان توم مور تاجراً للأقمشة من شارع ساكفيل. ورث عن أبيه ثروة طائلة ومتجراً مزدهراً. وفي أحد الأيام التقى عند باب متجره ريفياً يحمل قفصاً في داخله غراب. حياه الريفي وسأله قائلاً: «أترغب أيها السيد بشراء هذا الغراب؟».

فردّ عليه توم: «لا، لا أرغب في ذلك».

قال الرجل: «سأبيعه مع القفص بتسعة فلوس فحسب».

فأجاب توم: «لا، لا أريد، جرب حظّك في مكان آخر».

وحين هم الرجل بالابتعاد، أطل الغراب برأسه صائحاً: «ماوك، ماوك». فقال توم: «اللعنة، هذا الطير يعرف اسمي، مهلاً أيها القروي، أخبرني ما سعره ثانية؟». رد القروي: «خذه بثلاثة فلوس».

(1) غراب الزيتون: غراب صغير ينتشر في أوروبا وشمالي إفريقيا، لونه أسود داكن، مع لون رمادي خلف رأسه وخديه وعنقه. معروف بذكائه ويقوم أحياناً بحمل وإخفاء الأشياء الصغيرة اللامعة، وله نغمة (تشاك) عالية حين يصوت وبإمكانه أن يتعلم ويقلد أصواتاً أخرى (م).

وهكذا اشتراه توم مور، وعلّقه في سقف المحل. ثم صار يربّت كل يوم على ظهره، مردداً أمامه: «من أنت؟ من أنت؟ توم مور من شارع ساكفيل». وفي وقت قصير تعلّم الغراب هذه الكلمات، وكلما أراد طعاماً أو شراباً يقوم بغرز منقاره بين قضبان القفص، ويطل برأسه ويصيح: «من أنت؟ من أنت؟ توم مور من شارع ساكفيل». وكان توم مولعاً بالمقامرة وكثيراً ما يخسر مبالغ كبيرة بسببها، وكي لا يهمل متجره قام بوضع طاولة قمار في إحدى زواياه، وغالباً ما دعا أصدقاءه للعب معه هناك. ومع الوقت ألف الغراب المكان، وصار يخرج من باب القفص الذي يتركه توم مفتوحاً، ليتجول فيه، وقد حطّ عدة مرات قرب طاولة القمار، وراقب السادة وهم يلعبون. وكان كلما تكرر ربح أحدهم يصرخ الآخرون: «اللعنة كيف يقشهم». فتعلّم الغراب تلك الكلمات وأضافها للجملة السابقة فصار يصيح أحياناً: «من أنت؟ من أنت؟ توم مور من شارع ساكفيل. اللعنة كيف يقشهم».

وحين بدأت تجارة توم تنحدر وتتراجع جراء إهماله وخسارته المتكررة في المقامرة وغرقه في الديون، اعتقل وأودع سجن الجيش، فأخذ غرابه معه. حظي توم هناك بعناية خاصة من زملائه، وكانوا

يسألونه أحياناً ما الذي جاء به إلى السجن فيقوم برفع يديه مجيباً: «الصحبة السيئة» وبالطبع تعلم الغراب تلك الجملة أيضاً وأضافها لقاموسه السابق. وبمرور الأيام أصبح توم منبوذاً وحيداً، فالكثير من رفاقه ماتوا أو غادروا السجن، ثم نقل إلى السجن المدني، حيث أصيب بداء (سل الكلاب)[1] الخطير وحين كان على فراش الموت، أخذ الغراب بعد أن هدّه الجوع والعطش، يضرب منقاره بأرض القفص صائحاً: «من أنت؟ من أنت؟ توم مور من شارع ساكفيل. اللعنة كيف يقشهم. كيف وصلت إلى هنا؟ الصحبة السيئة». فزع توم لوضع الطائر، وفكر بكلماته التي ذكّرته بمصيره هو نفسه، فأخذ ينوح قائلاً: «رحمتك يا رب، أي شقاء وصلت إليه، أورثني أبي جاهاً ومالاً كثيراً أنفقته بالتبذير والمقامرة، وها أنا الآن أحتضر في هذا السجن المقيت، مُحتجزاً معي هذا الطير المسكين دون طعام أو شراب. سأقوم بعمل عادل واحد على الأقل قبل موتي، وأطلق سراح هذا الغراب». وهكذا جاهد كي ينهض من سرير القش، وفتح باب القفص وحرر الغراب، الذي سرعان ما امتزج بسرب من غربان الزيتون المحلقة في تلك اللحظة فوق المعبد المجاور للسجن.

---

(1) سل الكلاب مرض معد، يصيب الكلاب والحيوانات، وهو قاتل وخاصة فيما مضى من الزمن (م).

كان من الواضح أن حرباً تدور رحاها بين بستاني حديقة المعبد، وبين جماعة الغربان تلك، فكلما غرس شتلات ورد جديدة في الصباح، تأتي الغربان وتقتلعها في المساء، فجلب بندقية وعزم على اصطيادها. لكن مكر ذلك النوع من الغربان جعلها تفكّر بوضع واحد منها في جذع مجوف لشجرة ميتة، قرب حديقة المعبد، كي يراقب البستاني، وكلما رآه يسدد بندقيته، يجب أن يصيح «ماوك» فيهربون جميعاً في الحال.

بعد إخفاق فكرة البندقية أشير على البستانيّ باستخدام شبكة، وفي الليلة الأولى من نصبها تمكّن من القبض على خمسة عشر غراباً، ومن بينها غراب توم. حمل أحد الرجال الشبكة إلى عليّة بيت مهجور، ثم أحكم إغلاق الأبواب والنوافذ وأطلق سراح الغربان قائلاً: «والآن حان موعد انتقامي منكم أيها الزعران السود».

التقط واحداً ولوى عنقه، ثم رماه إلى الأرض وهو يقول: «تخلصنا من الأول».

فصاح غراب توم الذي كان على عارضة بعيدة في السقف يراقب: «اللعنة كيف يقشهم». فقال الرجل: «من المؤكد أنني سمعت صوتاً، لكن البيت غير مسكون، والأبواب موصدة،

لابد من أنني أتخيل». وحين همّ بقتل الطير الثالث صاح غراب توم ثانية: «اللعنة كيف يقشهم». فأسقط الرجل الطير من يده واستدار باحثاً عن مصدر الصوت فرأى منقار غراب توم لا يزال مفتوحاً فسأله: «من أنت؟». أجابه الغراب: «توم مور من شارع ساكفيل، توم مور من شارع ساكفيل».

فقال الرجل: «يا لك من شيطان، وما الذي جاء بك إلى هنا؟».

رد الغراب: «الصحبة السيئة، الصحبة السيئة».

أطار الرعب صواب الرجل، ففتح الباب وهبط الدرج بسرعة هارباً من البيت، وخلفه طارت كل الغربان وقد عادت حرة من جديد.

قصة كون إدا أو تفاحات لاف إيرن الذهبية
ترجمها نيكولاس أوكيرني عن النسخة الأصلية لمؤلفها الآيرلندي أبراهام مكوي

بدأت القصة في زمن لم تكن فيه المقاطعة الغربية من جزيرة «إنيس فودلا»[1] قد أخذت اسماً محدداً لها بعد، وإنما دُعيت باسم الملك القوي الذي كانت تحت سيطرته، وحافظت على ذلك الاسم طوال فترة حكمه. عُرف ذلك الملك بحزمه ومهارته في فنون الحرب والقتال، حيث لا منافس له في البر أو البحر، ولا يجرؤ أحدٌ على التشكيك بسلطته. امتدت سيطرته من جزيرة «راثلن»[2] إلى مصب نهر «شانون»[3] في البحر وكان اسمه كون. وقد فاقت محبة الناس له كل وصف. وكانت زوجته التي هي في الأصل أميرة بريطانية، كانت محبوبة مثله ومقدرة من الناس، لأنها كانت صورة طبق الأصل عنه. وازدهرت في عهدهما الزراعة والتجارة والصناعة. وعمّ الرخاء أنحاء المملكة كلها ولا حاجة إلى القول إن الرعية في ذلك المكان والزمان

(1) Innis Fodhla إنيس فودلا، أو جزيرة القدر ، وهو اسم قديم لآيرلندا (م).
(2) Rathlin جزيرة راثلن الصخرية في آيرلندا يصعب الوصول إليها وخاصة في الجو العاصف (م).
(3) Shannon شانون نهر شهير في آيرلندا (م).

كانت من أسعد سكان الأرض. وقد مُنحت آيرلندا في عهده وعهد ابنه الذي خلفه لقب «جزيرة الغرب السعيدة». استمر حكم الملك كون وزوجته الملكة زمناً طويلاً، ورُزقا بابن واحد أسمياه كون إدا تيمناً باسميهما معاً، وقد كان يتمتع بمزايا والديه الجسدية والخلقية ولذلك أحبه الناس بالمقدار نفسه.

وبعد وفاة الملكة إدا، إثر مرض خطير ألمّ بها، غرقت المملكة في الحداد مدة عام كامل ويوم، ثم تزّوج الملك كون من ابنة كاهنه التي أظهرت مشاعر الحب والعطف للملك وابنه والناس، وأنجبت عدة أبناء. لكن مع مرور السنوات وتقدم الملك في السن انتابها القلق من ينصّب ابنه المفضل إدا ولياً للعرش من بعده، مما سيحرم أبناءها حقهم في الملك ويعرضّهم لخطر العزل. فبدأت تكيد له بتلفيق الشائعات والقصص المسيئة لسمعته لكنها لم تنجح في إقناع زوجها الملك بأي منها، وكان إدا يتقبّل إساءاتها بتسامح وصبر إلى أن جاء يوم دفعها فيه كرهها وغيرتها منه لأن تفكر بالتخلص منه بقتله أو بنفيه من المملكة. ولتنفيذ خطتها قامت بزيارة عرّافة مشهورة بالسّحر والشعوذة لطلب نصيحتها.

قالت لها الساحرة: «لا يمكنني مساعدتك إلا إذا وافقتِ على طلبي».

قالت الملكة بصبر: «وما هو طلبكِ؟».

ردت الساحرة: «أن تملئي ذراعي بالصوف وبعدها بالقمح الأحمر». فقالت الملكة: «ستجاب طلباتك في الحال».

وعليه وقفت الساحرة في باب كوخها وطوت ذراعها على شكل فتحةٍ دائريةٍ مع خصرها، وبدأت الملكة تعبئ الصوف في تلك الفتحة حتى امتلأ بيت الساحرة وبدأت ندف الصوف تبرز من الباب والنوافذ، فقفزت الساحرة إلى بيت أخيها وطوت ذراعها بالطريقة عينها وطلبت من الملكة أن تملأ الفتحة الدائرية بالقمح الأحمر وفعلت الملكة مثلما طُلب منها، حتى امتلأ بيت أخ الساحرة كله بالقمح وصارت حبات القمح تتناثر من النوافذ والباب وشقوق الجدران.

قالت الملكة: «الآن وقد حصلتِ على ما تريدين أخبريني كيف أستطيع تحقيق غايتي». قالت الساحرة: «خذي رقعة الشطرنج هذه، ولاعبي الأمير إذا بعد أن تتفقا على أنه يحق للغالب اشتراط ما يشاء على المغلوب. في أول دور ستلعبانه ستكونين أنت الغالبة وتشترطين على الأمير أحد أمرين، إما القبول بالمنفى أو أن يجلب لك خلال سنة ويوم التفاحات الذهبيات الثلاث

التي تنمو في حديقة مالك الحصان الأسود وكلاب الصيد ذات القوة الخارقة والتي تدعى بسامر في أرض جماعة فيربولج[1] عند ملكهم لاف إيرن. إن استحوذتِ أنت على هذه الأشياء الثمينة فسيخسر الأمير حياته».

فرحت الملكة بنصيحة الساحرة كثيراً، وقامت على الفور بدعوة الأمير لمباراةٍ في الشطرنج واضعةً عليه تلك الشروط التي تعلمتها من الساحرة. ربحت الملكة اللعبة، لكن إحساسها بسعادة الانتصار أغرياها في تحدّيه مرة ثانية، ربح فيها كون إدا بسهولة. قال الأمير: «بما أنكِ ربحتِ في المرة الأولى فلكِ الحق في وضع شرطكِ». فردّت الملكة: «أريدك أن تجلب لي التفاحات الذهبيات الثلاث التي تنمو في حديقة الحصان الأسود وكلاب الصيد ذات القوة الخارقة وتدعى بسامر، والتي هي في أرض جماعة فيربولج عند ملكهم لاف إيرن، على ألا يستغرقك ذلك أكثر من عام ويومٍ واحد، وإن أخفقت سيكون مصيرك النفي المؤبد، إلا إذا رغبتَ بتسليم رأسك للمقصلة».

قال الأمير: «حسناً، أما شرطي فهو أن تبقي جالسة في قبّة ذلك البرج حتى أرجع من رحلتي وألا يقدّم لك أي طعام أو

(1) Firbolg: فيربولج الذين يؤمنون أن جنتهم توجد تحت الماء. العديد من الآيرلنديين حتى يومنا هذا يؤمنون بأن الكثير من البحيرات مياهها مسكونة (المؤلف).

شراب إلا ما يمكنك التقاطه من قمحٍ أحمر بدبوس زينتك، وإن لم أرجع يمكنك التحرر من هذا الشرط حين انتهاء مدة السنة واليوم الواحد».

اضطرب الأمير إذا نتيجة الشرط القاسي الذي التزم بتحقيقه، وقبل الانطلاق في رحلته كان عليه التأكد من مكوث الملكة في قُبة البرج حيث ستبقى سنة ويوم معرّضة للشمس أو البرد. وفكر أيضاً بزيارة صديقه الكاهن فيون ليُشير عليه وينصحه بخصوص الرحلة الصعبة المفروضة عليه. رحّب به الكاهن أشد الترحيب وعامله كصديق قديم، وبعد أن استراح وأكل وشرب، أطلعه على أمر الشرط وحكى له قصة صراعه الطويل مع زوجة أبيه وطلب مساعدته. فقال الكاهن: «في الحقيقة لن أستطيع مساعدتك في الوقت الحالي، سأذهب عند شروق الشمس إلى معبدي الأخضر، لاستعلم من الكهنة عن طريقة لمساعدتك».

وهكذا عندما رجع الكاهن في منتصف اليوم التالي نادى الأمير إذا وانفرد به قائلاً: «يا ولدي العزيز، لقد عرفت أنك واقعٌ تحت شرط مستحيل هدفه القضاء عليك، فلا يوجد مخلوق على الأرض يمكنه الإيفاء بشرط كهذا إلا لاف كوريب التي هي أعظم ساحرة في آيرلندا، وهي أخت ملك فيربولج، الملك لاف

إيرن نفسه. وهذا خارج نطاق قدرتي أو قدرة معبدي، ولن نستطيع التدّخل في هذا الشأن، لكن اذهب مباشرة إلى سلياب مس واستشر كاهناً اسمه «الطير ذا الرأس البشري»، وإن كان هناك أي إمكانية لتسهيل الأمور عليك فسيعرفها ذلك الطير، فهو بارعٌ في معرفة الغيب وفهم الحاضر والماضي. لن تجد مكانه بسهولة، كما سيصعب عليك الحصول على مشورته، لكنني سأسعى لجعله متعاوناً معك. هذا كل ما يمكنني فعله لأجلك في الوقت الحاضر». ثم أضاف: «خذ هذا الحصان وانطلق في الحال لأن الطير ذا الرأس البشري سيظهر فقط في الأيام الثلاثة القادمة وإن رفض مساعدتك خذ هذا الحجر الثمين واعرضه عليه، فقد يبدي لك بعض الامتعاض والغضب بدايةً، لكنه في النهاية سيدلّك على الطريق».

شكر الأمير الكاهن وأسرج الحصان وانطلق في رحلته دون تأخير. وفي الطريق فعل مثلما أشار عليه الكاهن فأفلت رسن الحصان وجعله يقوده في الاتجاه الذي يرغب. بعد أن وصل إلى مكان الطير وأراه الحجر الثمين وطلب منه المساعدة قام الطير بنزع الجوهرة من الحجر ووضعها في فمه ثم حلّق إلى مسافة ما، وحطّ على صخرة ثم قال للأمير بصوت بشريّ أجش: «يا كون

إدا، ارفع الحجر الموجود تحت قدمك اليمنى وخذ كرة الحديد الموجودة تحته وارمِ بها أمام الحصان وبعد أن تُتم ذلك سيخبرك حصانك بكل ما عليك فعله».

قال الطير ذلك واختفى في الحال. نفّذ كون إدا تعليمات الطير بدقة، وعندما وضع الكرة أمام حصانه تدحرجت ببطء وانتظام أمامهما فتبعاها حتى وصلا حدود مملكة لاف إيرن، حينئذ غاصت الكرة في الماء واختفت عن أنظارهما.

قال الحصان: «ضع يدك في أذني واسحب منها زجاجة الشفاء وكذلك السلة الصغيرة التي ستجدها هناك ثم تابع طريقك بسرعة، فقد بدأت مرحلة الخطر الآن». وفعل كون إدا مثلما طُلب منه وانزلق في الماء وراء الكرة فصارت المياه مثل سماء من فوقه وظهرت الكرة من أمامهم ثانية، وواصلت تدحرجها حتى وصلت إلى حافة طريق مرتفع محروس بثلاثة أفاع سامة يسمع هسيسها عن بُعد، وتقدر على إخافة أشد القلوب بأساً. قال الحصان: «افتح السلة الآن وخذ قطعاً من اللحم الموجود فيها ودسّ واحدةً في فم كل منها، وبهذه الطريقة نستطيع التملّص من أنيابها». ففعل الأمير ذلك وكلما اجتازا واحدةً كان الحصان يُطمّئنه ويشجّعه حتى وصلا إلى قمة جبل مشتعل فحلّق

الحصان كالسهم فوقه وحين هبطا طلب منه أن يدهن حروق جسمه بذلك الدواء الشافي من كل علّة ففعل الأمير وعاد جلده إلى طبيعته في الحال.

قال الحصان: «لقد انتهت أشدّ الأخطار وهناك أمل أن نجتاز الصعوبات المقبلة بسلام». تابعا طريقهما خلف الكرة المعدنية التي قادتهما إلى بوابة عالية تتوسط جدران سور ضخم، يحيط بمدينة كبيرة رائعة وكانت تلك البوابة الوحيدة غير المراقبة من حرس مسلحين، وإنما ببرجين عظيمين تخرج ألسنة اللهب منهما.

قال الحصان: «خذ سكيناً ستجده في أذني الثانية واطعنّي في عنقي ثم اسلخ جلدي وادخل فيه، وتابع طريقك عبر هذه البوابة التي سيكون بإمكانك بعد أول مرة تجتازها الدخول والخروج منها كيفما يحلو لك، لذلك لا تنسَ العودة لتضع على جسدي القطرات المتبقّية من زجاجة الدواء الشافي من كل علّة ثم ادفني هنا وادخل البوابة ثانية».

ردّ الأمير: «أيها الحصان النبيل، إن عرضك هذا يجرح كرامتي ويشعرني بتفاهتي، كيف يمكنني التخلي عن رفيق مخلص مثلك، وبدلاً من مكافأتك أقوم بقتلك، إن قلبي كإنسان وكأمير

شهم لا يطاوعني على طعنك، وإن كان ثمن نجاتي خيانتك فأهلاً بالموت حتى ولو كان بأبشع حالاته».

قال الحصان: «لا يا رجل لا تقل هذا وافعل ما طلبته منك».

فأصر الأمير على موقفه فقال الحصان بحزن: «إذن لقد حكمت علينا بالموت، إن كنت ترفض اتباع نصيحتي فسنختفي نحن الاثنان ولن نلتقي بعدها أبداً، لكن إن قبلت سيحدث ما يسعدك في النهاية. صدقني فليس من مصلحتي خداعك».

عندما عجز الأمير عن إقناع حصانه النبيل أخذ السكين وطعنه بينما يشيح بوجهه عن المنظر المؤلم، ولم يستغرقه إلا برهة قصيرة حتى خرّ الحصان ميتاً على الأرض. ركع الأمير قربه ينوح بشدة حتى فقد وعيه وحين أفاق وشاهد ما فعلته يداه عاد للبكاء بحرقةٍ مرة ثانية، لكنه تذكر ما عليه القيام به فأخذ السكين وبمجرد أن لمس بها جسد الحصان انزلق جلده عن جسده دفعة واحدة، فدخل الأمير في الجلد وانطلق باتجاه البوابة. حين صار خلف الأسوار برزت أمامه مدينة رائعة لم يرَ بجمالها من قبل، لكن حزنه على فراق صاحبه الحصان حرمه من متعة المشاهدة فلم يلقِ بالاً لأعمدتها المزخرفة وقصورها الباذخة وحدائقها المزينة بأشجار نادرة وورود جذابة وغريبة.

بعد أن تجول قليلاً فطن لأمر العودة لوضع الدواء ودفن الحصان فأسرع للقيام بذلك. وجد عدداً من الطيور الكاسرة تحوم حول جثة الحصان وتنتش لحمه النازف فطردها في الحال وصبّ عليه ما تبقى في الزجاجة من الدواء الشافي من كل علة، وحدثت في تلك اللحظة معجزة أدهشت الأمير أيما دهشة فقد رأى أمامه شاباً رائع التكوين يحل بلمح البصر مكان الحصان الميت. نهض ذلك الشاب معانقاً الأمير الذي لم يكن قد صحا بعد من هول المفاجأة وأخبره بأنه أخٌ لملك ذلك البلد وأن الكاهن الشرير فيون احتجزه بهيئة الحصان وكان مجيء الأمير إدا إليه لطلب مشورته شرطاً لزوال السحر، وكان الكاهن مرغماً لأن يتخلى عنه، لكنه لم يستطع العودة لهيئته الطبيعية لولا تصرف الأمير إدا بتلك الطريقة الحنونة المخلصة. كما أخبره أن أخته هي تلك الساحرة التي حرّضت زوجة أبيه الملكة على إرساله في طلب التفاحات الذهبية وكلاب الصيد ذات القوى الخارقة التي يملكها أخوه، وأنها لم تقصد أذيته البتة لكن كان لابد لها من تحرير أخيها وفي الوقت نفسه مساعدة الأمير حين علمت بنية زوجة أبيه ضده. كما طمأنه بأن التفاحات وكلاب الصيد العجيبة ستكون من نصيبه حالما يدخلان قصر أخيه الملك.

وبالفعل حين وصلا إلى القصر وبعد أن تعانق الإخوة الثلاثة ورحّبوا بالضيف وسمعوا تفاصيل المغامرة، قام الملك بتقديم التفاحات والكلاب والحصان الأسود للأمير إدا ودعاه للبقاء في مملكته حتى تنتهي مدة الشرط، فلبى الأمير الدعوة وقد قضى برفقة الملك وأخيه أسعد الأوقات. وفي يوم رحيله ودّع أصدقاءه بحرارة، واتفق معهم على تكرار الزيارة مرة في العام على الأقل. وفي أثناء عودته لم يعترض طريقه أي عائق يُذكر، وتمكن من الوصول لمملكته قبل انتهاء الموعد المحدد. فوجد الملكة لا تزال في قبة البرج يحدوها الأمل في أن يخفق الأمير في مهته وألا تراه قطّ بعدها وبهذا يرث أكبر أبنائها العرش، لكن أملها تبخّر حين وصلها نبأ عودته من الحراس الذين كُلفوا بمراقبة رجوعه. في البداية ارتابت في صحة الخبر، لكن حين رأته ممتطياً حصاناً أسود ومن خلفه ظهرت ثلاثة حيوانات غريبة مقيدة إلى سلاسل من فضة عرفت أنه عاد مكللاً بالنصر، واكتشفت بمرارة أن مؤامرتها منيت بالفشل. أفقدها حزنها وخيبة الأمل صوابها فرمت بنفسها من أعلى البرج وماتت على الفور.

أُستقبل الأمير إدا استقبالاً مليئاً بالدموع والعناق من أبيه الملك الذي ظن أنه خسره للأبد وكانت فرحته لا توصف بعودته سالماً غانماً. وبالنسبة للملكة فقد أمر الملك بحرق بقاياها جزاءً لها على كيدها وحقدها. ثم قام إدا بزرع بذور التفاحات الثلاث في حديقته وسرعان ما تحولت إلى شجرة رائعة، حملت له الثمار الفريدة نفسها. وقد أمدّت تلك الشجرة تربة المنطقة كلها بالنضارة والخصب، وأما الكلاب والجواد الأسود فقد كانت تحضر دائماً لخدمته حين تدعو الحاجة. وامتد حكم الملك كون إدا زمناً طويلاً مليئاً بالازدهار وتيمناً باسمه دعيت المقاطعة بكونيدا.


ISBN 978-9948-01-532-1





